الإعجاز في نظم القرآن

تأليف

د. محمود السيد شيخون

أستاذ البلاغة والنقد

ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها

وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر



الكتاب : الإعجاز في نظم القرآن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

تمهيد

نبذة تاريخية عن حياة العرب الأدبية قبل الإسلام :

تروي كتب التاريخ والسير أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل متفرقة مختلفة النزعات ، وكانت كل قبيلة تكون وحدة مستقلة ، لها مركزها بين القبائل الأخرى ، ولها حدودها الخاصة ، وحماها المستقل الذي تذود عنه وتفنى في حمايته ، وكانت كل قبيلة تعتز بماضيها ، وتحرص على تاريخ نضال آبائها وأجدادها وجهادهم لإعلاء شأن القبيلة ، ورعاية أفرادها وحمايتهم ، كما تعتز القبيلة بحاضرها فتمجد شعراءها ، وتفخر بخطبائها ، تتغنى بأشعارهم وتروي خطبهم ، لأن الخطيب أو الشاعر كان لسان القبيلة الناطق ، ينشر مفاخرها ، ويتغنى بأمجادها ، ولذلك كان الشعراء والخطباء يتمتعون بمنزلة عالية في المجتمع العربي آنذاك ، ونتج عن ذلك أن راجت سوق الأدب رواجاً كبيراً ، وأدى هذا الرواج إلى التنافس بين الشعراء والخطباء أيهم أقدر على إظهار قبيلته بالمظهر اللائق بها بين القبائل الأخرى ، ثم تطور هذا التنافس إلى المباراة فيما بينهم على قدرة التعبير والتصوير وقوة المعاني وجزالة الأسلوب ، فكان من نتيجة ذلك أن سمت أذواقهم ، وتوسعت مداركهم في الناحية الأدبية حتى وصلوا إلى رتبة في البيان والبلاغة والأدب لم تستطع الأجيال التي تلتهم أن يلحقوا بهم هذا المضمار ، وقد وصفهم محمد بن جرير الطبري في تفسيره بأنهم رؤساء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشعر والفصاحة والسجع والكهانة ، كل خطيب منهم بليغ ، وكل شاعر فيهم فصيح [١] .

وقد وصف عتبة بن أبي سفيان كلامهم أيضاً فقال : " إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء ، وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت [٢] " .

---

(١) تفسير الطبري جـ١ ، ص ٤-٥ .

(٢) زهر الآداب للحصري جـ٣ ص٤٨ .

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى النهضة الأدبية التي كانت عند العرب في نهاية العصر الجاهلي أي قبيل نزول القرآن ، وأن العرب في ذلك الوقت كانوا قد بلغوا الذروة في البيان والبلاغة والأدب فقال : " إن العرب في نهاية العصر الجاهلي أخذوا يخضعون صناعة الكلام لنقد أولي ، ولكن في أغلب الأحوال سديد ، لأنهم كانوا يعولون فيه على سلامة الذوق ، وقد بلغ بهم الأمر أن استكشفوا عيوباً فنية في النظم ، ووضعوا من النصح والإرشاد ما يفيد كلاً من الخطيب والشاعر في صناعته [1] " .

(١) مقدمة نقد النثر ص ٤ ط بولاق سنة ١٩٤١م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع سنته ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أمّا بعد ...

فهذه دراسات حول النظم القرآني أردت أن أوضح من ورائها بعض ما ينطوي عليه هذا الكتاب المبين من روعة البيان وإعجازه ، وكيف أنه أعجز أساطين البيان من العرب مع أنه منظوم من نفس الحروف والكلمات التي ينظمون منها كلامهم ؟ وكيف أنه بنظمه الفريد قد أثر فيهم تأثيراً بليغاً ، فطار بألبابهم واستولى على أحاسيسهم ومشاعرهم ، وأدهش عقولهم ، وأوقعهم في حيرة ، ووقفوا أمامه منهولين فمنهم من خضع لسلطانه وأذعن لبلاغته وبيانه ، فدان له وآمن به عن إدراك وعقيدة بعد أن تذوق حلاوته ، ولمس إعجازه بفطرته العربية السليمة ، وملكته النافذة الحكيمة ومنهم من ضاق به ذرعاً فكابر وعاند ، وأضله الله على علم فأنكر الشمس في وضح النهار ، وجحد التنزيل بعد اليقين والاستيقان .

ولم أقصد من وراء هذه الدراسات إلى الاستقراء والاستقصاء فمثلي يستعصي عليه مثل ذلك في هذا الميدان ، وإنما الذي قصدت إليه ، هو أن أنال رشفة من بحر هذا البيان الإلهي ، أمتع بها الخاطر والنفس ، وأسعد بها الفكر والخيال ، وحسبي وحسب القارئ أن نقف من وراء ذلك وقفة المتأمل الخاشع عند شاطئ هذا اليم .. نمتع البصر فيما عجز عن إدراك كنهه العقل ، ونرهف السمع لهذا الذي سجد لبيانه البيان . فكم من جمال تذوب تأثراً به النفس ، ولا يحده الفكر والعقل ، وكم من حقيقة جاثمة وراء حدود دلالة النطق والكلام ، فلا يعبر عنها إلا الحيرة الخاشعة ، ولا يتبينها سوى صادق الإحساس .

وقد وضعت هذه الدراسات تحت عنوان " الإعجاز في نظم القرآن " .

وقد مهدت لها بالحديث عن الحياة الأدبية عند العرب قبيل نزول القرآن وما كانوا عليه من الفصاحة والبيان . ثم قسمت هذه الدراسات إلى خمسة فصول :

تكلمت في **الفصل الأول** عن الإعجاز كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ ثُمَّ أمطت اللثام عن وجوهه . وتكلمت في **الفصل الثاني** عن الذين كتبوا في الإعجاز ، فكشفْتُ القناع عن جهودهم في هذا المجال ومدى تأثر بعضهم ببعض في هذا الميدان ، وناقشت آراءهم وبينت وجه الصواب فيها .

وفي **الفصل الثالث** تكلمت عن مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ، موضحاً هذه المظاهر بالكثير من الأمثلة القرآنية .

وفي **الفصل الرابع** تكلمت عن الإعجاز وعلاقته بالصور والألوان البلاغية ، وهل هذه الصور والألوان معجزة في القرآن أولاً ؟ ووضحت القول في ذلك وأوردت بعض الأمثلة القرآنية المشتملة على هذه الصور والألوان ، وقمت بتحليلها حسب طاقتي وعلى قدر فهمي وإدراكي .

ثم تحدثت في **الفصل الخامس والأخير** عن الإعجاز في نغم القرآن المنبعث من نظمه الفريد . وقد أيدت ذلك ببعض الأمثلة القرآنية .

والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا دائماً لخدمة القرآن العظيم . إنه سميع مجيب ، وهو حسبي ونعم الوكيل ...

الدكتور

محمود السيد شيخون

الفصل الأول

الإعجاز

نشأته – تطوره – وجوهه

في هذا الفصل من البحث أريد أن أميط اللثام عن فكرة الإعجاز كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ فأقول طالباً العون والتوفيق من الله تعالى : إن فكرة الإعجاز قديمة موغلة في القدم إذ إن أصولها ترجع إلى أوائل نزول القرآن الكريم ، فحين نزل جبريل الأمين بالقرآن الكريم على خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ كان العرب آنذاك قد بلغوا القمة في الفصاحة والبيان كما أشرت إلى ذلك قبلاً ، فلما سمعوه أصابتهم الدهشة ، ووقفوا أمام روعة بيانه حيارى منهولين ، فكان إعجازه عند هؤلاء القوم ينفذ إلى أحاسيسهم ومشاعرهم فيستولي عليها ، ولقد حكى القرآن حيرتهم وما دار على ألسنة شيوخهم وكبرائهم ممن لهم قدم راسخة في البلاغة والبيان ، فهذا عتبة بن ربيعة ، وكان مقدماً في قومه ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان محمد ﷺ جالساً وحده في المسجد ، وقد حز في نفوسهم أن يروا أتباع محمد ﷺ يزيدون ، ويكثرون ، لا سيما بعد أن أسلم حمزة عم النبي ﷺ ، فقال عتبة لقومه : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ، فقالوا يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من العشيرة والمكان والنسب ، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ، قال : قل يا أبا الوليد ، قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل يداوي منه حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال : " أقد فرغت يا أبا الوليد " قال : نعم قال " فاسمع مني " قال افعل قال بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حم : تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ۞ بشيراً ونذيرا فأعرض**

---

(١) الرئي : بفتح الراء فهمزة مكسورة فياء مشددة : التابع من الجن وقيل التابع المحبوب من الجن – النهاية لابن الأثير مادة "رأى" .

أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾[1] ، ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد ، ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت " فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس قالوا إننا وراءك يا أبا الوليد ، قال : ورائي أني سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش اطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتمُوهُ بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم [2] .

وهذا الوليد بن المغيرة ، وهو من رؤساء قريش ومن بلغائهم وأبينائهم قد أفزعه وفود العرب إلى مكة ، وقد سمعوا بأمر محمد ﷺ فيما سيواجهونهم ، فأشار على قومه ، أن يجمعوا العرب فاجتمع حوله نفر من قريش ، وكل منهم مسحور بهذا القرآن متحير في أمره ، لا يدري ماذا يقول ؟ فأرادوا أن يوكلوا الأمر إلى الوليد بن المغيرة باعتبار منزلته ، وسنه ، يقول رأيه في محمد والقرآن المنزل عليه ، ولكنه رفض ، وقال : بل أنتم فقولوا نسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ، ولا سجعه ، قالوا : فنقول : إنه مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه وسوسته ، قالوا فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا فنقول : ساحر ، قال ، ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس قال والله : إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه

---

(١) فصلت : ١-٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٩٩ ط بولاق – نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ من ص ٢١٠-٢١١ .

لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً ، ألا أعرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه ، أن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدم الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة قوله:﴿**ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر**﴾[1] .

وأنزل الله في النفر الذين كانوا معه – أي مع الوليد بن المغيرة – يصنفون القول في رسول الله ﷺ ، وفيما جاء به من عند الله ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ [2] .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان من أساطين العرب وأبينائهم ينمو إلى سمعه أن أخته وزوجها قد أسلما ، فيذهب إلى بيت أخته ، يريد أن يبطش بها ، ولكنه حين سمع من أخته وهي تتلو القرآن أو قرأ الصحيفة التي بيدها لم يستطع الوقوف أمام بيان القرآن وروعة نظمه فسرعان ما سكن غضبه ، وهدأت أعصابه ، وطلب محمداً ليعلن إسلامه .

وينقل ابن كثير في البداية عن البيهقي ما نصه : " أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا ، وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسهم شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال

---

(١) سورة المدثر آية ١١– ٢٥ .
(٢) سورة الحجر الآيات ٩١–٩٣ ، وانظر أيضاً سيرة ابن هشام جـ ١ ص٩٠ وما بعدها .

بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه ، فباتوا يسمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا فلما أصبح ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها فقال الأخنس ، وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال : ما سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع له أبداً ، ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق " [1] .

ويروى عن أبي عبيدة أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[2] فسجد ، وقال سجدت لفصاحته ، وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿**فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا**﴾[3] فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام [4] .

ولقد كان تأثير القرآن العظيم في مشركي قريش عاما ، فلم ينج عنه منهم كبير ولا صغير ، رئيس ولا مرؤوس تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم ، بل لقد كان في رؤسائهم أشد وفي فصحائهم وبلغائهم أقوى من عامتهم ، لأنهم أدرى بفنون الكلام وأساليبه.

وأمام هذا التأثير القوي الذي أدهشهم وأذهلهم ، وأوقعهم في حيرة انقسموا فريقين :

فريق أذعن وسلم ، وآمن واهتدى ، وفريق كابر وعاند ، ورأى أن خير طريقة للخلاص من تأثير هذا القرآن الانصراف عن سماعه ، وصرف الناس أيضاً ، فنزل القرآن على لسانه

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير جـ ١ ص٦٤ ط مصر .
(٢) سورة الحجر آية ٩٤ .
(٣) سورة يوسف آية ٨٠ .
(٤) القاضي عياض ص ٢١٧ وما بعدها .

فقال تعالى ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[1] .

فكانوا يجلسون بسبيل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه من الاجتماع بمحمد ﷺ والاستماع له[2].

وهذا الفريق ظل في عناده وكفره وجحوده وإنكاره وقال : ﴿ **قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾[3] .

وحينئذ تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، وأفرغ هذا التحدي في قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب وأنهضهم إلى ذلك بالتقريع والتحميس ، ومختلف أشكال التحدي فقال لهم مرة مؤنباً ومقرعاً ﴿ **أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ❁ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[4].

وقال لهم بأسلوب آخر ﴿ **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ❁ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[5] ، وقال لهم مرة ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ❁ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[6] ، ولما عجزوا عن الإتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله وبان عجزهم قال لهم في تحد بلغ القمة في البيان ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[7] وصدق الله العظيم وتمت المعجزة وثبت الإعجاز لهذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٩١ ط بولاق .
(٣) سورة الأنفال آية ٣١ .
(٤) سورة الطور آية ٣٣-٣٤ .
(٥) سورة هود آية ١٣-١٤ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٣-٢٤ .
(٧) سورة الاسراء آية ٨٨ .

ومع عجزهم عن التحدي فإن بعضاً منهم قد أكلت الغيرة قلبه وسولت له نفسه الشريرة أن يعارض القرآن فنزل الميدان وأتى بكلام بارد مضحك وأساليب سخيفة كانت مثار سخرية العقلاء فيما بعد ، ومن هؤلاء مسيلمة بن حبيب الكذاب الذي تنبأ باليمامة في أواخر حياة الرسول ﷺ فقد زعم أن له قرآنا آخر يوحى إليه من السماء وقد جاء في قرآنه هذا فيما رووا قوله : " يا ضفدعُ بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ، ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين " ومن ذلك قوله :" والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فاووه ، والباغي فناوئوه " وقوله : "والشاء وألونها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون "[1].

وقوله :" الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل " .

ومن هؤلاء أيضاً عبلهة بن كعب الذي يقال له الأسود العنسي ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، وسجاح بنت الحارث التميمية ، والنضر بن الحارث .

وقد رأيت ألا أطيل في نقل كلامهم في المعارضة ، لأنه لا يساوي المداد الذي يكتب به ومن أراد الاطلاع على مثل هذا الكلام البارد المضحك السخيف فعليه بكتب الجاحظ ، وإعجاز القرآن للرافعي ، وتفسير الطبري ولكن – هذا الفريق سرعان ما تخاذل ، وافتضح أمره ، وانقطعت أنفاسه ، وظهر عجزه وبان خطله . مما سبق يستبين لنا أن إدراك العرب الذين عاصروا نزول القرآن للإعجاز كان فطرياً غير مسبوق بدراسة ، ولا طول نظر في الكتب ، وإنما أدركوا هذا الإعجاز بفطرتهم العربية السليمة ، وما حباهم الله من ذوق سليم وفصاحة وبيان ، ولذلك كان إيمانهم بهذا الدين إيماناً راسخاً ، ناضلوا دونه ، وبذلوا دماءهم وأموالهم في سبيله .

ولكن بعد أن تقدم الزمن ، وانتشر المسلمون في أرجاء الأرض بانتشار الإسلام في الأمصار

---

(١) المذق : مزج اللبن بالماء والمجع : اللبن يشرب على التمر .

وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة ، واختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة ، لم يعد إعجاز القرآن يدرك بالفطرة ، وإنما صار إدراكه يتطلب دراسة واعية ومستفيضة للغة العربية ، وإحاطة بغريبها ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها ، لتنمو لدى من يريد التصدي لمعرفة الإعجاز ملكة تمكنه من إدراك هذه الناحية في القرآن العظيم ، فانتقل الإعجاز من مرحلة " التذوق الفطري " إلى مرحلة " التذوق العلمي " الذي يجب أن تسبقه دراسة واسعة لأساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز في القرآن العظيم ، وهذا يعني أن الإعجاز الذي كانت تدركه أكثرية العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم ، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، هي التي بيدها وسائل التذوق الفني ، ولهذا كثرت التساؤلات والاستفهامات حول إعجاز القرآن الكريم فيم وقع الإعجاز ؟ وفي أي من القرآن ؟ وما هي وجوه هذا الإعجاز ؟ ولماذا صار القرآن معجزاً ؟ وهل هو معجز بلفظه أو معناه أو بما يشتمل عليه من المغيبات أو التشريعات ؟

وقد ساعد على كثرة هذه الاستفهامات ، نقل ما دار على ألسنة المعاندين من قريش ، وآيات التحدي التي جاءت لتتحدى من تسول له نفسه الجحود بآيات الله ، ثم الآيات الكثيرة التي نزلت لتحث المسلمين على تدبر معاني القرآن ، وتفهم أحكامه ، وقد استغل الشعوبيون هذه الناحية – أعني كثرة الاستفهامات – فراحوا ينفثون سمومهم في صفوف المسلمين ليشككوا ضعاف الإيمان في عقيدتهم كالجعد بن درهم [1] .

ولما ازداد نشاط هؤلاء المغرضين الحاقدين من الشعوبيين فكثرت مطاعنهم في القرآن الكريم ، واتخذت المسألة شكلاً سافراً ، وصارت تشكل خطراً على العامة من المسلمين هب المخلصون من علماء المسلمين للذب عن قرآنهم ، والدفاع عنه ، ورد كيد الكائدين في نحورهم .

---

(١) هو من الموالي ، وقد جاهر بآرائه الغريبة ، والمخالفة لنصوص القرآن الكريم فقال : أولا بخلق القرآن ثم أنكر تكليم الله لموسى عليه السلام ، كما أنكر اتخاذ الله إبراهيم خليلا ، وكان أيام هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فلما سمع به هشام طلبه فظفر به ، وأرسله إلى خالد بن عبد الله القسري عامله على العراق ليقتله فضحى به خالد صباح يوم عيد الأضحى المبارك وكان ذلك حوالي ثمان عشرة ومائة للهجرة .
" الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص١٩٥ ، ١٩٧ ، ٣٢٩ ط . ليدن " .

ومن هنا نجد دراسة إعجاز القرآن تتخذ شكلاً آخر هو " الدفاع عن القرآن الكريم ، ونفي ما أثاره هؤلاء الشعوبيون من شكوك وأباطيل " .

ويمكننا أن نعتبر كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيده معمر بن المثني المتوفي سنة ٢٠٩هـ مظهراً لنشاط العلماء في هذا الباب وذلك لسببين :

السبب الأول : سبب تاليفه لهذا الكتاب ، حين استقدمه الفضل بن الربيع إلى بغداد سنة١٠٨هـ فساله أحد جلساء الوزير ، وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب عن قوله تعالى ﴿**طلعها كأنه رؤوس الشياطين**﴾[١] قائلاً لأبي عبيدة إنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، متوهماً السائل بأن الله سبحانه وتعالى ، قد أوعد بما لم يعرف ، على اعتبار أن الشياطين لا يرون بالعين الباصرة ، فأجابه أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالى إنما كلم العرب على قدر كلامهم ، فلم يأت بما لم يألفوه ، واستشهد ببيت امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فقارن له أبو عبيدة بين رؤوس الشياطين ، والغول ، لأن العرب لم يروا الغول أيضاً ، ولكن أمره كان يهولهم .

السبب الثاني : هو موضوع هذا الكتاب الذي يتناول فيه أبو عبيدة طرق التعبير القرآني ليعرضها على ما للعرب من فنون في التعبير ، فيجد لها مثيلاً فيه ، فكأن أبا عبيدة في عمله هذا يريد أن يدلل على عربية القرآن وفصاحته ، وأنه لم يأت بغريب في التعبير لم تألفه العرب .

ولابد أن يكون هذا الاستفسار الذي جوبه به أبو عبيدة مثلاً واحداً لحركة واسعة كانت تستهدف النيل من القرآن الكريم ، وهذه الآية التي استثارت أبا عبيدة كانت هي نفسها – على مايبدو – موضع جدل ونقاش أثاره هؤلاء الطاعنون ، ليدللوا بها على عدم فصاحة القرآن ، ولذلك نرى الجاحظ يورد نفس الآية ليدحض ما دار حولها من الافتراءات[٢] .

---

(١) سورة الصافات آية ٦٥ .
(٢) الحيوان جـ ٦ ص٢١١ – ٢١٣ .

ثم جاء من بعده الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ فتصدى للشعوبيين الحاقدين ووقف في وجوههم فألف كتاب النبوة ليرد به على هؤلاء الشعوبيين كما صرح هو نفسه بذلك فقال : " فكتبت كتاباً اجهدت فيه نفسي ، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي ، في الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ، ولا لحديثي ، ولا لحشوي ، ولا لكافر مباد ، ولا لمنافق مقموع ، ولا أصحاب النّظّام ، ولمن نجم بعد النّظّام ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ، ولا دلالة " (١) .

ويقول الجاحظ أيضاً :" ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد ، والفضول ، والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة (٢) .

وقد امتدح ابن الخياط هذا الكتاب فقال :" لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة ، واحتج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن ، وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ (٣) .

ولم يقتصر الجاحظ في دفاعة عن القرآن الكريم على كتاب النبوة و " نظم القرآن " وإنما نراه في أكثر مؤلفاته لم يترك فرصة إلا ويندد بأعداء القرآن ، ففي إحدى رسائله ، بعد أن يدلل على عجز العرب عن الوقوف أمام فصاحة القرآن ، ويأسهم من معارضته ، والتجائهم إلى بذل أرواحهم وأموالهم في محاربته يقول : " وهل يذعن الأعراب ، وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم ، وهم أشد خلق الله أنفة ، وافرطه حمية ، وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه – أي القرآن – في كل منهل وموقف والناس موكولون بالخطاب ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد أتاه به ، من لم يزوده ، وأما أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يطبقوا على ترك

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٢١-١٢٢ .
(٢) الحيوان جـ٣ ص ٧٦ ط . هارون .
(٣) الانتصار لابن الخياط ص١٥٤-١٥٥ .

المعارضة ، وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء ، والدهاة والحكماء مع اختلاف عللهم ، وبعد هممهم ، وشدة عداوتهم على بذل الكثير ، وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التنديد ، ومن جليل الأمور التي لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف؟ فكيف على الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام أهون من القتال ومن إخراج المال " .

ثم يصرح الجاحظ بأسماء نفر من الشعوبيين ، ليندد بهم فيقول : " والذي منعهم – يعني العرب – من ذلك هو الذي منع ابن العوجاء ، واسحاق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا ، وبالإيمان كفرا ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة بالزندقة خاصة ، فقد كانوا يضعون الآثار ، ويولدون الأخبار ويبثونها في الأمصار ، ويطعنون في القرآن ، ويسألون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامه ويضعون الكتب على أهله " [1] .

وكذلك في كتابه " البيان والتبيين " نراه كثيراً ما يشيد بفضل العرب ، وبلاغتهم وأخلاقهم[2] وما ذلك إلا كرد فعل للموجة التي سادت المجتمع الإسلامي ، والتي يحاول فيها المغرضون من الشعوبيين التقليل من شأن العرب وتراثهم الفكري .

ثم جاء بعد الجاحظ " ابن قتيبة " المتوفي سنة ٢٧٦هـ فندب نفسه للدفاع عن القرآن الكريم فعمد إلى تأليف كتابه " تأويل مشكل القرآن " وكان هذا سبب تأليفه لهذا الكتاب ، كما أوضحه ابن قتيبة نفسه فقال : " وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه وهجروا ، واتبعوا ﴿**ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**﴾[3] بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة في اللحن وفساد النظم ، والاختلاف ، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف

---

(١) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ التي نشرها السندوبي ص١٤٥ – ١٤٦ ط. مصر سنة ١٩٣٣م .
(٢) البيان والتبيين جـ ٣ ص١٣ ط . مصر سنة ١٣٣٢هـ .
(٣) آل عمران : ٧ .

الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور ، فأحببت أن أنفح عن كتاب الله ، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن مستنبعاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح ، وحاملاً ما لا أعلم فيه مقالاً لإمام مطلع على لغات العرب ، لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان من غير أن أحكم فيه برأي ، أو أقضي عليه بتأويل ، ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير ، إذ كنت أقتصر على وحي القوم حتى كشفته وعلى إيمائهم حتى أوضحته ، وزدت في الألفاظ ، ونقصت وقدمت ، وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الأمثال والأشكال حتى يستوي في فهمه السامعون" [1].

وقد ركز ابن قتيبة اهتمامه على الآيات التي كانت موضع جدل ونقاش من قبل هؤلاء الطاعنين ، وقد نوه عن ذلك أثناء كلامه على المتشابه والمشكل من القرآن فقال : " وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر ، والمعنيان مختلفان قال الله عز وجل في وصف ثمر الجنة: ﴿ **وأتوا به متشابهاً** ﴾ [2] أي متفق المناظر مختلف الطعوم وقال : ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾[3] أي يشبه بعضها بعضاً في الكفر والقسوة ، ومنه يقال : اشتبه عليَّ الأمر ، إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما ، وشبهت علي ، إذا ألبست الحق بالباطل ، ومنه قيل لأصحاب المخاريق ، أصحاب الشبه ، لأنهم يشبهون الباطل بالحق ، ثم يقال لكل ما غمض ودق ، متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبهة بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة في أوائل السور ، متشابهة ، وليس الشك فيها والوقوف عندها ، والتباسها بها ، ومثل المتشابه المشكل ، وسمي مشكلاً لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله ، ثم قد يقال لما غموضه من هذه الجهة مشكل ، وقد بينت ما غمض معناه لالتباسه بغيره ، واستتار المعاني تحت لفظه ، وتفسير المشكل الذي ادعى على القرآن فساد النظم فيه ، وقدمت قبل ذلك

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٧-١٨ .
(٢) البقرة : ٢٥ .
(٣) البقرة : ١١٨ .

أبواب المجاز إذ كان غلط المتأولين من جهته " [1] .

وقد استهل ابن قتيبة كتابه هذا بمقدمة تناول فيها صفة القرآن ، وأنه المعجزة الكبرى التي نسخت سالف الكتب السماوية مشيداً بعجيب نظمه ، وعظيم معانيه ، مع قلة ألفاظه ومبانيه ، ودلل ابن قتيبة على ذلك بآيات من القرآن لينبه على ما أودعه الله فيها من المعاني بأسلوب لطيف ، يقول ابن قتيبة : " فإن شئت أن تعرف ذلك "أي لطف أسلوب القرآن " فتدبر قوله تعالى : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[2] .

كيف جمع الله له – أي للرسول ﷺ – بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين ، وفي الأمر بالعرف تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات ، وإنما سمي هذا وما أشبهه عرفاً ومعروفاً لأن كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن إليه ، وفي الإعراض عن الجاهلين ، الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج .

وقوله تعالى إذ ذكر الأرض فقال : ﴿ **اخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾[3] .

كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والثمر والعصف [4] واللباس والنار والملح لأن النار من العيدان والملح من الماء ، وينبئك أنه أراد ذلك قوله تعالى ﴿ **متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ [5] ثم يمضي ابن قتيبة في إيراد آيات أخرى [6] ليتناولها بنفس الطريقة ، وكأن ابن قتيبة في مقدمته هذه يريد أن يبين للقارئ طرفا من بلاغة القرآن الكريم .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٧٤–٧٥ .
(٢) الأعراف : ١٩٩ .
(٣) النازعات : ٣١ .
(٤) العصف : ورق الزرع وما لا يؤكل منه " لسان العرب جـ ١ ص١٥٢ ط. بولاق " .
(٥) النازعات : ٣٣ .
(٦) تأويل مشكل القرآن ص٥ وما بعدها .

وبعد هذه المقدمة يعقد ابن قتيبة باباً يتكلم فيه عن العرب وما خصهم الله به من العارضة[1] وقوة البيان ، وتفننهم في أساليب كلامهم ، ومقدرتهم الفطرية على الارتجال في المحافل والأندية والمجتمعات ، ثم يتكلم عن اللغة العربية وميزاتها وخصائصها التي انفردت بها عن سائر اللغات بسبب حروف هجائها وإعرابها ، ثم يورد أمثلة يبين فيها أثر العرب في استقامة المعنى ووضوحه ، فيستهل هذا الباب بقوله : " وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصاً من الله لما أرهصه في الرسول وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه " [2] .

ثم يتكلم ابن قتيبة عن أسلوب المجاز في اللغة العربية فيقول : " وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طريق القول ومآخذه ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز إن شاء الله وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله بالعربية لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب " [3] وهو يريد من كل ما ذكره من خصائص اللغة العربية وأساليبها أن يبرهن على أنه لا يمكن لأحد الوقوف على أسرار القرآن وفهم أسلوبه ومعانيه إلا بإلمام بأساليب اللغة العربية والوقوف على فنون التعبير فيها ، هذا بالنسبة إلى العربي أما بالنسبة لغير العربي فإنه يحتاج إلى ممارسة وطول نظر في لغة العرب حتى يتمكن من ذلك .

---

(١) العارضة : هي قوة الكلام وتنقيحه والرأي الجيد " لسان العرب جـ٩ ص٤٣ " .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص١٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٦ .

ثم استبعد ابن قتيبة إمكان نقل القرآن إلى غير اللغة العربية لعدم اتساع تلك اللغات لأساليب اللغة العربية وطرق التعبير فيها ، وهذا الحكم من ابن قتيبة هو عين الحقيقة لأن المترجم وإن تمكن من نقل معاني الألفاظ القرآنية إلى اللغة التي يريد ترجمة القرآن إليها لا يتمكن من أن ينقل إلى تلك اللغة أسرار لغة العرب وإيحاءات التركيب التي امتاز بها القرآن الكريم والتي تملك على العربي أحاسيسه ومشاعره وتهزه حين يطلع عليها ، ولما كان المترجم عاجزاً عن ذلك فلا يجوز إذن ترجمة القرآن إلى غير لغته لأن الترجمة ستفقده صفة من صفات إعجازه ، ثم بعد ذلك يبدأ ابن قتيبة في سرد طعون الملحدين في القرآن تحت عنوان " الحكاية عن الطاعنين " فيذكر في هذا الباب الآيات التي لاكتها ألسنة هؤلاء الشعوبيين مبيناً وجهة نظرهم ومسجلاً اعتراضاتهم ثم يذيل هذا الباب بقوله : " وقد ذكرت الحجة عليهم في جميع ما ذكروا وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ليكون الكتاب جامعاً للفن الذي قصدت له "[1] .

ثم يصنف ابن قتيبة ردودوه على هذه الافتراءات إلى أبواب هي : " باب لما يتعلق بوجوه القراءات " و " باب لما يتعلق باللحن " وكذلك التناقض والاختلاف والمتشابه والمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه والكناية والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه وتأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم فأفرد ابن قتيبة لكل من هذه الأنواع باباً خاصاً بها مستقرئاً معظم سور القرآن ليشير إلى ما ورد فيها من ذلك .

ففي باب الرد عليهم في وجوه القراءات يقول ابن قتيبة : " وأما ما اعتلوا به في وجوه القراءات من الاختلاف فإنا نحتج عليهم فيه بقول النبي ﷺ : " نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرأوا كيف شئتم " وقد غلط في تأويل هذا الحديث قوم فقالوا السبعة الأحرف وعد ووعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج . وقال آخرون هي سبع لغات في الكلمة ، وقال قوم : حلال وحرام ، وأمر ونهي وخبر ما هون كائن بعد وأمثال[2].

(١) تأويل مشكل القرآن ص٢٥ .
(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري جـ ١ ص٢٢-٢٥ .

وليس شيء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل ومن قال فلان يقرأ بحرف أبي عمرو[١] أو بحرف عاصم[٢] فإنه لا يريد شيئاً مما ذكروا وليس يوجد في كتاب الله حرف قرئ على سبعة أوجه يصح فيما أعلم ، وإنما تأويل قوله ﷺ : " نزل القرآن على سبعة أحرف " أي على سبعة أوجه متفرقة في القرآن يدلك على ذلك قوله ﷺ : " فاقرأوا كيف شئتم " وقال عمر : "سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها ، وقد كان النبي ﷺ أقرأنيها فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : اقرأ ، فقرأت فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : " إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا منه ما تيسر ، فمن قرأ قراءة عبد الله فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبي فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد فقد قرأ بحرفه [٣] والحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم وعلى الكلمة الواحدة ويقع الحرف على الكلمة بأسرها والخطبة كلها والقصيدة بكمالها "[٤].

ثم يمضي ابن قتيبة فيتكلم على القراءات السبع وأوجه الاختلاف بين كل من هذه القراءات ، وتحت عنوان " باب التناقض والاختلاف " يدفع ابن قتيبة فيقول :" فأما ما نحلوه من التناقض في مثل قوله تعالى ﴿**فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان**﴾[٥] وهو يقول في موضع آخر ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾[٦] فالجواب في ذلك أن يوم القيامة كما قال الله تعالى ﴿**مقداره ألف سنة**﴾[٧] .

ففي مثل هذا اليوم يسألون ، وفيه لا يسألون لأنهم حين يعرضون ويوقفون على الذنوب يحاسبون ، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة ﴿ **انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** ﴾[٨]

---

(١) هو أبو عمرو سعيد بن اياس الشيباني توفي سنة ٩٦هـ .

(٢) هو عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة توفي سنة ١٢٧هـ " اللهبي : طبقات القراء ورقة ٢٤ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٣٧ تأريخ " .

(٣) يقصد عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت " تأويل مشكل القرآن حاشية ص ٢٧ " .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٦-٢٧ .

(٥) الرحمن : ٣٩ .

(٦) الحجر : ٩٢ .

(٧) المعارج : ٤ .

(٨) الرحمن : ٣٧ .

وانقطع الكلام وذهب الخصام ، واسودت وجوه قوم ، وأبيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت الصحف من الأيدي فآخذ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخذ ذات الشمال إلى النار وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿**فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان**﴾ قال هو موطن لا يسألون فيه ، ومثله ﴿**ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾[1] .

وفي باب المجاز يقول ابن قتيبة : " وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل ، وتشعبت بهم الطرق ، واختلفت النحل فالنصارى تذهب في قول المسيح عليه السلام في الإنجيل : " ادعو أبي ، وأذهب إلى أبي " إلى أبوة الولادة ولو كان المسيح قال هذا في نفسه خاصة دون غيره لما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل في الله تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً مع سعة المجاز فكيف وهو يقوله في كثير من المواضع لغيره كقوله حين فتح فاه بالوحي : " إذا تصدقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك فإن أباك الذي يرى الخفيات يجزيك به علانية وإذا صليتم فقولوا يا أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك ، وإذا صمت فاغسل وجهك ، وادهن رأسك لئلا يعلم ذلك غير أبيك " [2] .

وقد قرأوا في الزبور أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السلام : " سيولد لك غلام يسمى لي ابنا وأسمى له أبا " وفي التوراة أنه قال ليعقوب عليه السلام : " أنت بكريَ" وتأويل هذا أنه في رحمته وبره وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده . وكذلك قال المسيح للماء : "هذا أبي" وللخبز " هذا أمي " لأن قوام الأبدان بهما ، وبقاء الروح عليهما كالأبوين اللذين منهما النشأة ، وبحضانتهما السخاء . وكانت العرب تسمي الأرض أُماً لأنها مبدأ الخلق وإليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم ، وفيها كفايتهم قال أمية بن أبي الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمنا   فيها مقابرنا وفيها الولد

---

(١) القصص : ٧٨ .

(٢) إنجيل متى ص١٢ ،١٣ من العهد الجديد ط. جمعية التوراة البريطانية الامريكية .

وقال يذكرها :

منها خلقنا وكانت أمنا خلقت ونحن أبناؤها لو أننا شكر

هي القرار فلا نبغي بها بدلا ما أرحم الأرض إلا أننا كفر [1]

وقال الله تعالى في الكافر ﴿ **فأمه هاوية** ﴾[2] لما كانت الأم كافلة الولد ، وغاذيته ومأواه ومربيته كانت النار للكافر كذلك جعلها أمه ، وقال في أزواج النبي ﷺ ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾[3] أي كأمهاتهم في الحرمات الخ " [4] .

وابن قتيبة في مؤلفه هذا يعطينا صورة بينة المعالم للتحول الذي طرأ على دراسة إعجاز القرآن حيث اكتسبت هذه الدراسة شكل الدفاع عنه ودحض أقوال الخصوم الذين سددوا سهامهم المسمومة نحو القرآن الكريم للنيل منه فرد الله كيدهم في نحورهم ، وأطفأ نارهم ، غير أن هذه التيارات والحملات الظالمة التي كان أبطالها الشعوبيون والحاقدون بدأت تضعف نتيجة للجهود المخلصة التي بذلها علماء المسلمين في الدفاع عن القرآن الكريم وإظهار زيف هذه الأقوال أمام الناس وبطلانها وكشف مراميها وأهدافها ، وبضعف هذه التيارات بدأت دراسة إعجاز القرآن الكريم تعود إلى اتجاهها الأول ، وهو بيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم :

لا أريد أن أستفيض في بحث هذه الوجوه ، واستقصائها والحديث عن مذاهب العلماء فيها ، واختلاف وجهات نظرهم إزاءها ، لأن هذا المسلك يبعدني عن موضوع البحث وهو "الإعجاز في نظم القرآن" ولكنني سأتحدث عن هذه الوجوه بإيجاز ، ثم أبسط القول في الوجه الذي يخص هذا البحث " النظم " فأقول مستعيناً بالله وحده : إن القرآن معجز من وجوه مختلفة بعضها خاص بالعرب الذين درسوا اللغة العربية ، وتذوقوا بلاغتها ، وبعضها الآخر

---

(١) ديوانه ص٣٢ .
(٢) القارعة : ٩ .
(٣) الأحزاب : ٦ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص٧٦-٧٧ .

عام يدركه العقلاء من الناس على اختلاف أجناسهم .

أما ما يخص العرب من ذلك فهو بديع نظمه ، وعجيب تاليفه وسموه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الخلق عن الإتيان بمثله .

وإعجاز القرآن من هذا الوجه حجة على العرب ، لأنهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه ، والعرب حجة على سائر الناس ، لأنهم إذا رأوا أن أرباب هذه اللغة ، وأدباءها قد قصر بهم الطوق عن تأليف مثله ، أدركوا أنه معجز ، وأنه ليس مما يقدر عليه البشر وأما ما يدركه من ذلك الناس كلهم فيتلخص في ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : ما فيه من الإخبار عن المغيبات ، وقد وقعت كما أخبر ، فواضح أن ذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ، ويوجد من ذلك في القرآن كثير .

فمنه قوله تعالى :﴿**قل للذين كفروا ستغلبون ، وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد**﴾[1] .

وقوله تعالى ﴿ **آلم ❁ غلبت الروم ❁ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ❁ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ، إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين**﴾[3].

الوجه الثاني : ما فيه من الإخبار عن الماضي السحيق ، من حين خلق الله آدم إلى مبعث محمدﷺ، مما لم يكن يعلمه أحد من الناس ، ولم يكن مثبوتاً شيء منه إلا في الكتب السماوية السابقة ، وقد علم لدى الناس جميعاً ، أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يحسن قراءة ولا كتابة ، ولم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين ، وأنبيائهم وسيرهم ولم يعثر مؤرخ أو باحث ، على أنه لازم راهباً ، أو رجلاً من علماء الكتب السماوية ليتعلم منه شيئاً مما عنده ، وإذا كان هذا كله من اليقين ، الذي لم يتطرق إليه شك أي باحث أو مؤرخ ، فمن البدهي إذن ، أنه لا يمكن ، أن يصل إلى علمه شيء من ذلك إلا بتأييد من الوحي الإلهي ، وإخبار من جهته .

---

(١) آل عمران : ١٢ .
(٢) الروم ١–٢ .
(٣) الفتح : ٢٧ .

الوجه الثالث : ما يتضمنه هذا الكتاب من التشريع العظيم الدقيق ، المتعلق بشتى أمور الحياة الخاصة والعامة ، والذي عنت لعظمته جباه علماء التشريع والقانون ، وكانوا ولا يزالون يعلنون أنه لا غنى لأي مقنن ، أو مشرع عن الاستفادة من كنز تشريعه ، والاعتماد على مبادئه وأحكامه ، فجميع المؤتمرات الفقهية التي أقيمت في أنحاء مختلفة من العالم أجمعت فيها كلمة علماء الفقه والقانون ، على اختلاف نحلهم ، ومذاهبهم على مدى أهمية الفقه الإسلامي ، وروعته ، وضرورة الإقبال على دراسته ، والاستفادة منه [1] .

فإذا تأملت في هذا الفقه الذي يقال عنه هذا الكلام في القرن العشرين ، إنما يعود مصدره إلى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، وأن قانوناً ما ، لم يبق حياً صالحاً خلال عشر هذه المدة ، وأن الذي تنزل عليه هذا القانون رجل أمي ، لم يقرأ كتاباً ، ولم يخط بيمينه حرفاً واحداً ، ، فضلاً عن أن يتوفر على دراسة التشريع ، أو أن يعكف على قانون "جوستنيان" أو يجمع من حوله الباحثين وأرباب العلم ، والاختصاص – إذا تأملت في هذا بالبداهة – أنه ﷺ ، لا يمكن أن يصل إلى علم شيء من ذلك أيضاً ، إلا من جهة الوحي ، وإخباره [2] .

وقد ذكر الباقلاني هذه الوجوه في كتابه " إعجاز القرآن " [3] كما أشار إليها السيوطي في كتابه " الإتقان " [4] .

وبعد أن ذكرت هذه الوجوه ، فإن حديثي الآن سوف يكون مقصوراً على الوجه الأول ، وهو ما ينطوي عليه هذا الكتاب العظيم من الإعجاز البلاغي ، الذي ووجه به العرب مباشرة ، ثم ووجه به الناس كلهم ، عن طريق العرب ، فكان حجة عليهم كلهم .

---

(١) من ذلك المؤتمر القانوني الذي عقد في " لاهاي " سنة ١٩٣٨م فقد قرر في نهايته المؤتمرون ، اعتبار الشريعة الإسلامية ، مصدراً من مصادر التشريع العام ، وأنها حيَّة قابلة للتطور ، وأنها شرع قائم بذاته ، ليس مأخوذاً عن غيره . ومن ذلك أيضاً مؤتمر المحامين الدولي في " لاهاي " الذي عقد في سنة ١٩٣٨ واشتركت فيه ٥٣ دولة والذي قرر المؤتمرون في نهايته أنه يجب على جمعية المحامين الدولية ، أن تتبنى الدراسة المقارنة للتشريع الإسلامي العظيم وتشجع عليها ، نظراً لما فيه من مرونة ، ولما له من شأن ، ومن ذلك المؤتمر الحقوقي الذي عقد في "باريس سنة ١٩٥١ وقرر ، أن لمبادئ الفقه الإسلامي قيمة تشريعية لا يماري فيها ، وأن الفقه الإسلامي بمذاهبه ، يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة " .

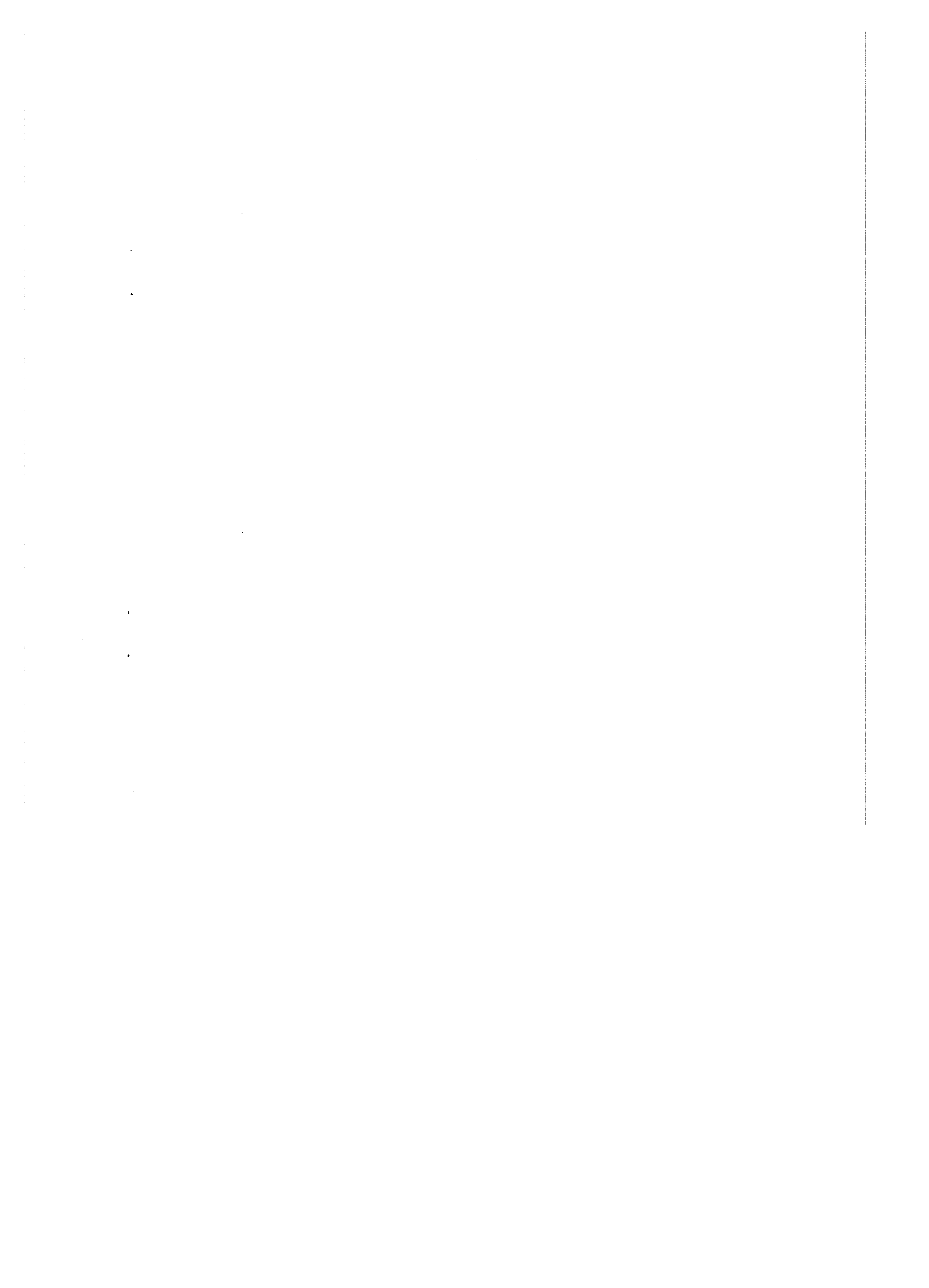
(٢) من روائع القرآن للبوطي ص١٣٥–١٣٦ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٥٩ .

(٤) الإتقان للسيوطي جـ٢ ص١١٩ .

الفصل الثاني

الذين كتبوا في الإعجاز



إن الحديث عن الإعجاز في القرآن الكريم ، ينبغي أن يكون مسبوقاً بالحديث عن الذين كتبوا فيه لنعرف من خلال كتاباتهم ماذا يريدون من هذا الإعجاز ؟ ولكي نقف على جهودهم في هذا المضمار ، ونتعرف على آرائهم ، ونستجلي وجهات نظرهم ، ونكشف القناع عن اتجاهاتهم وسنراعي في الحديث عن هؤلاء التسلسل الزمني لنستوضح الآراء الأصلية ، والآراء المستفادة من الغير ، ونميز بين المجدد منهم والمقلد ، فنقول وبالله التوفيق :

إن الذين كتبوا في الإعجاز في القرآن الكريم كثيرون ، ولكن حديثنا سيكون مقصوراً على الذين كتبوا في هذا الجانب بإفاضة وعمق ، ولعل أول من أفاض في هذا الجانب من وجهة نظرنا هو " أبو الحسن علي بن عيسى الرماني " المتوفي سنة ٣٧٤ هـ في كتابه " النكت في إعجاز القرآن " .

وإن الناظر المتأمل في كتابه هذا يرى أنه يقرر أن القرآن معجز بألفاظه ، وأسلوبه ونظمه ، وأثره في النفوس إذ نراه يقسم البلاغة إلى طبقات ثلاث :

منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسط بين أعلى طبقة ، وأدنى طبقة ، فما كان في أعلى طبقة فهو معجز ، وهوبلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس ، ثم نراه يعيب على من عرف البلاغة بأنها : إفهام المعنى أو على أنها تحقيق اللفظ على المعنى ، معللاً ذلك بأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والآخر عيي ، كما أنه قد يحقق اللفظ المعني ، وهو غث مستكره ، ونافر متكلف : يقول الرماني : " وليست البلاغة إفهام المعنى ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان : أحدهما بليغ ، والآخر عيي ،ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ المعني ، وهو غث مستكره ، ونافر متكلف "[1] ثم يعرف البلاغة بأنها : إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، وتعريفه هذا يدل على تمتعه بذوق جمالي رفيع ، ينظر من خلاله إلى الكلام البليغ ، فكم يكون لطيفاً هذا الكلام الذي ينطبق عليه تعريف الرماني هذا

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٢٢ .

بحيث تنقل ألفاظه ما تحمله من معان إلى القلب دون عناء أو تكلف .

ثم يستفيض الرماني في الحديث عن بلاغة القرآن الكريم ، فيجعلها في أعلى رتب البلاغة ، ويقرر أنها معجزة للعرب والعجم فيقـول : " فأعلاهـا – أي أعلى طبقـات البلاغـة – معجـز للعرب والعجم كإعجاز الشعرالمفحم ، فهـذا معجـز للمفحـم خاصـة ، كمـا أن ذلـك معجـز للكافة [1] .

ثم يتوسع الرماني في الكلام عن البلاغة ، فيقسمها إلى عشرة أقسام ، ويفرد لكل قسم مـن هذه الأقسام باباً خاصاً ، يتكلم عنه فيقول : " والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريـف ، والتضمـين ، والمبالغـة وحسـن البيان ، ونحن نفسرها باباً باباً إن شاء الله تعالى [2] :

ثم يتناول الرماني هذه الأبواب العشـرة للبلاغـة ، بحسـب ترتيبهـا المذكـور ، ليشـرح كـل واحد منهـا ، فيـبدأ أولاً بـباب الإيجـاز ، فالتشبيه ، ثـم الاستعارة وهكـذا إلى نهايـة الأبـواب العشرة.

يبدأ الرماني بباب الإيجاز ، فيعرفه أولاً ، ثـم يـأتي بأمثلـة علـى الإيجـاز بأنواعـه مـن القـرآن الكريم ، وبعد أن ينتهي من ذلك يعقد مقارنـة بـين مـا ورد منه في القـرآن ، وبـين مـا ورد في كـلام العـرب ، من هذا الفن ، هادفاً من وراء ذلك إلى بيان فضل إيجاز القرآن على غيره مـن كلام العرب ، يقول الرماني في تعريف الإيجاز :

" الإيجاز تقليل الكلام ، من غـير اختـلال بـالمعنى " ، وإذا كـان المعنـى يمكـن أن يعبر عنـه بألفاظ قليلة فالألفاظ القليلة إيجاز ؟

ثم يقسم الرماني الإيجاز إلى قسمين : إيجاز حذف وإيجاز قصر ، ثم يتكلم عـن كـل مـن هذيـن القسمين فيقول : فالحذف : إسقاط كلمة للاجتزاء عنها ، بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٦٩–٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ص٧٠ .

والقصر : بنية الكلام على تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى من غير حذف .

فمن الحذف ﴿ **واسأل القرية** ﴾ [1] ومنه ﴿ **ولكن البر من اتقى** ﴾ [2] ومنه ﴿**براءة من الله**﴾ [3] ومنه - أي من الحذف - حذف الأجوبة ، وهي أبلغ من الذكر ، وما جاء منه في القرآن كثير ، كقوله تعالى ﴿**ولو أنّ قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرضُ ، أو كُلّم به الموتى**﴾[4] كأنه قيل : لكان هذا القرآن ، ومنه ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاؤها ، وفتحت أبوابها**﴾[5] كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير .

ثم يعلل الرماني بلاغة هذا النوع من الحذف فيقول : " وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قولك : " لو رأيت عليا بين الصفين " أبلغ من الذكر لما بيناه" [6] .

وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف ، فهو أغمض من الحذف ، وإن كان الحذف غامضاً ، للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح ، فمن ذلك ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾[7] ومنه ﴿**وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها**﴾[8] الخ ، ثم يعقد الرماني مقارنة بين إيجاز القرآن ، وبين ما استحسنه العرب في هذا الفن من كلامهم فيقول : "وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : " القتل أنفى للقتل " وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر في أربعة أوجه : أنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة ،

---

(١) يوسف : ٨٢ .
(٢) البقرة : ١٨٩ .
(٣) التوبة : ١ .
(٤) الرعد : ٣١ .
(٥) الزمر : ٧٣ .
(٦) النكت في إعجاز القرآن ص٧١ .
(٧) البقرة : ١٧٩ .
(٨) الفتح : ٢١ .

وأبعد من الكلفة ، بتكرير الجملة وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة .

أما الكثرة في الفائدة : ففيه كل ما في قولهم :" القتل أنفى للقتل " ، وزيادة معان حسنة:

منها : إبانة العدل لذكره القصاص ، ومنها : إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره للحياة ، ومنها : الاستدعاء بالرغبة ، والرهبة لحكم الله تعالى به .

وأما الإيجاز في العبارة : فإن الذي هو نظير " القتل أنفى للقتل " قوله : "القصاص حياة " والأول أربعة عشر حرفاً ،والثاني عشرة أحرف .

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة ، فإن في قولهم : " القتل أنفى للقتل " تكريراً غيره أبلغ منه ، وَمَتَى كان التكرير كذلك ، فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة : فهو مدرك بالحس ، وموجود في اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام ، أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ، لبعد الهمزة عن اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء ، أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها ، صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغاً حسناً .

ثم يمضي الرماني في الكلام عن الإيجاز من حيث أغراضه ، وفوائده ، وطرق التعبير به ، ثم يختم الرماني باب الإيجاز هنا بتفضيل هذا اللون من أساليب الكلام ، على سائر أنواع البيان فيقول : "وإذ قد عرفت الإيجاز ، ومراتبه ، وتأملت ما جاء في القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان".

ثم يشرع الرماني في تعديد فوائد الإيجاز فيقول : " والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير .. إلخ ".

ولقد أكثر الرماني من الحديث عن الإيجاز كما رأينا ، فعرفه ووضح أقسامه ، وبين فوائده وأسراره ، هادفاً من وراء ذلك إلى التدليل والبرهنة على أن أسلوب القرآن في أعلى رتب

البلاغة كما ذكر ذلك في أول الكتاب ، وأنه أسلوب فريد تقصر دونه قوى البشر ومن هنا وقع الإعجاز فيه .

ثم استطرد الرماني في إيراد الأمثلة القرآنية في جميع شعب البلاغة العشرة ، مشيراً أثناء ذلك إلى جمال الأسلوب القرآني ، وحسن استعماله لهذه الفنون البلاغية .

ولولا الإطالة لذكرت حديثه عن كل الأبواب البلاغية العشرة ، ولكنني اكتفيت بحديثه عن الإيجاز لأبرهن به على حسن براعته ، وتمكنه من فهم بلاغة القرآن فهو يتناولها تناول المتذوق لحلاوتها ، الفاهم لأسرارها ، الواقف على دقائقها ثم تحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم " الخطابي حمد بن ابراهيم بن خطاب البستي المتوفي سنة ٣٨٨هـ في كتابه " بيان إعجاز القرآن "وهذا الكتاب عبارة عن استعراض وجمع لآراء العلماء في بلاغة القرآن ، ثم إثبات رأيه في ذلك .

فقال مستعرضاً آراء من سبقه من العلماء ناقداً لها ، عائباً أصحابها : " وزعم آخرون أن إعجازه – أي القرآن – من جهة البلاغة ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد ، وضرب من غلبة الظن ، دون التحقيق له ، وإحاطة العلم به ولذلك ساروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام المعروف بالبلاغة قالوا : إننا لا يمكننا تصويره ، ولا تحديده بأمر ظاهر ، نعلم مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده " [1] .

ثم يستدل الخطابي على إعجاز القرآن بما تضمنه من التحدي للعرب قاطبة " مدة عشرين سنة " والقرآن يسفه أحلامهم ، ويعيب آلهتهم ، فعجزوا عنه ، وانقطعوا دونه ، ولجأوا إلى مناصبته العداء الذي أريقت بسببه الدماء ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص٢٢ .

ثم يعلل عجز البشر عن الإتيان بمثله بقوله : " وإنما تعذر على البشر الاتيان بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية بألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعني به قائم ، ورباط لها ناظم .

ثم يتحدث الخطابي عن بلاغة القرآن فيقول : " إن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق المرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في شيء منه ألبته .

فالقسم الأول أعلى طبقات البلاغة وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة واحدة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة " .

وملخص رأي الخطابي أنه يرى أن إعجاز القرآن راجع إلى جمال ألفاظه ، وحسن نظمه ، وسمو معانيه وأثره في النفوس ولقد صرح بهذا فقال : " وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، ولا أشد تلازماً ، وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها ، وصفاتها وقد توجد هذه الفضائل متفرقة في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في كلام واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير ، الذي أحاط

بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عدداً " [1] وقال أيضاً : "إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع ، والهشاشة في نفسه ، وما يتحلى به من الرونق ، والبهجة ، التي يباين بها سائر الكلام ، حتى يكون له هذا الصنيع في النفوس ، فتصلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتحصر الأقوال عن معارضته وتنقطع به الأطماع عنها أمر لابد له من سبب بوجوده ، يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف " [2] .

وقال :" وثمة وجه آخر من وجوه إعجاز القرآن قد أغفله الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك هو صنيعة في القلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ، ولا منثوراً إذا قرع السمع ، خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، قد عراها من الوجيب ، والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها ، وعقائدها الراسخة فيها " [3] وقال : " فتفهم الآن ، وأعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني "[4] .

والخطابي لا يرد الإعجاز إلى الناحية البلاغية فحسب ، ولكنه يعتبر هذه الناحية وجهاً من وجوه الإعجاز فيه فهو يرى أن وجه الإعجاز في القرآن يتألف من عدة أمور مجتمعة هي: ما تضمنه القرآن من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ، نحو قوله تعالى ﴿ **آلم ❁ غلبت الروم ❁ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ❁ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد**﴾[5] وكقوله تعالى ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد** ﴾[6] .

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ص٦٤ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٣-٢٤ .
(٥) الروم :١-٣ .
(٦) الفتح : ١٦ .

ويعقب هنا – الخطابي فيقول : "ولا يشك في أن هذا ، وما أشبهه من إخباره نوع من أنواع إعجازه ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فقال **﴿فأتوا بسورة من مثله ۝ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**[1] من غير تعيين ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه "[2] .

والخطابي قد أورد هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن في معرض رده على من اعتبر القرآن معجزاً من هذه الناحية فحسب .

هذا ملخص رأي الخطابي في إعجاز القرآن الكريم ، وقد عرضه عرضاً شيقاً ، يدل على ذوق جميل ، وطبع سليم وفهم عميق لأساليب اللغة العربية ، ومعرفة تامة بطرق التعبير فيها ، مكنته من تذوق حلاوة القرآن ، فأثر في نفسه تأثيراً بليغاً ، فعبر عن هذا التأثير بأجمل العبارات ، وجعله وجهاً من وجوه إعجازه ، إلا أنني لاحظت عليه أثناء عرضي لرأيه أن هناك تقارباً في الفكرة بينه وبين الرماني وبخاصة فيما يتعلق بالناحية البلاغية ، فكلاهما قد قسم الكلام إلى ثلاث مراتب ، ولكنهما افترقا في أن الرماني قد جعل أعلى رتبة من رتب البلاغة للقرآن خاصة ، وقد عجز البشر عن الوصول إليها ، بينما الخطابي كان يرى أن القرآن قد أخذ من كل هذه الرتب الثلاث ، فحصل له بذلك نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، فكلا الرأيين متقاربان ، ولكنه يصعب علينا معرفة أيهما أسبق بالفكرة من الثاني لأنهما كانا متعاصرين ، ولما كانا كذلك فلابد والحالة هذه – أن يكون كل منهما قد أفاد من الآخر .

ثم تحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم بعد الخطابي " القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني " المتوفي سنة ٤٠٣هـ في كتابه " إعجاز القرآن " ، وقد ألف هذا الكتاب ، ليرد به على منكري الإعجاز في عصره ، وقبل عصره ، وأن من يُمْعِنُ النظر في كتابه يدرك أنه

---

(١) البقرة : ٢٣ .
(٢) بيان إعجاز القرآن ص٢١ .

يرى ، أن القرآن معجز بأسلوبه ، ونظمه البديع ، وألفاظه ، وأثره في النفوس ، ولذلك فإننا نراه في هذا الكتاب يتعرض لكتاب " نظم القرآن " للجاحظ ، ويقرر أنه غير كافٍ للدلالة على بلاغة النظم ، لأن الجاحظ لم يزد عما قاله المتكلمون قبله [1] . ونراه في كتابه أيضاً يستفيض في الحديث عن نظم القرآن ، فيصف القرآن بأنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ، وأن أسلوب القرآن ونظمه خارجان عما ألفه العرب من أساليب كلامهم المنظوم ، والمنثور ، فهو ليس بالشعر ، ولا بالنثر ، ولا بالسجع ، وإنما هو أسلوب انفرد به القرآن وحده وفي هذا يقول :

" إن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم أنواع الكلام الموزون ، غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالاً ، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعي فيه شعراً كثيراً ، فهذا إذا تأمله المتأمل تبين – بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم – أنه خارج عن العادة ، وأنه معجزٌ ، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميز حاصل في جميعه [2] .

ونراه كذلك يفاضل بين أسلوب القرآن ، وبين غيره من أساليب العرب مبيناً فضل القرآن على جميع هذه الأساليب شعراً ، ونظماً فيقول : " ومنها – أي من الوجوه التي يباين فيها

(١) إعجاز القرآن ص٦ .
(٢) إعجاز القرآن ص٣٣-٣٥ .

أسلوب القرآن أساليب العرب - أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الصفة ، والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة على هذا الطول ، وعلى هذا القدر .

ومنها : أي من هذه الوجوه - أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، مع ذكر قصص ومواعظ ، واحتجاج ، وحكم ، وأحكام وإعذار ، إنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير ، وتخويف ، وأوصاف ، تعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور .

ومنها : أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع .

ومنها : أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن ، كما يخرج عن عادة كلام الإنس ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ، ويقصرون دونه كقصورنا ، وقد قال الله عز وجل ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن .. الآية**﴾[1] .

ومنها : أن الذي ينقسم إليه الخطاب من البسط والاقتصاد ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجوده في القرآن ، وكل ذلك مما لا يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة .

ومنها : أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة ، والأحكام ، والاحتجاجات ، في أصل الدين والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، ويمتنع .

---

(١) الإسراء : ٨٨ .

ومنها : أن الكلام يتبين فضله ، ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع ، وتتشوق إليها النفوس ، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائر ما تقرن به ، كالدرة التي ترى هي سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد [1] .

ومنها أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفاً ، ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم .

ومنها : أنه سهل سبيله ، خارج عن الوحشي المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وذلك جعله قريباً من الأفهام ، يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس .

وهو مَعَ ذلك ممتنع المطلب ، عسير المتناول ، غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه ، أو يظفر به [2] .

والباقلاني كالرماني لا يرد إعجاز القرآن إلى الناحية البلاغية فحسب وإنما يجعل هذه الناحية وجهاً من وجوه إعجازه التي تتلخص عنده في ثلاثة أمور هي :

الإخبار عن الغيوب ، وأمية الرسول ﷺ التي تؤكد أنه لم يكن يعرف شيئاً عن كتب الأولين ، وأقاصيصهم ، وسيرهم ، وما تضمنه القرآن من ذلك ، ونظمه البديع العجيب.

هذا هو رأي الباقلاني في إعجاز القرآن ، وقد عرضه بأسلوب جميل فيه رقة الأديب الأريب ، ودقة العالم اللبيب ، فهو حين يحدثك عن نظم القرآن يبهرك أسلوبه ، ويأسرك

---

(١) يريد بهذا أن يدلل على جودة نظم القرآن وسمو بلاغته بحيث إذا أخذت منه كلمة واستعملتها في شعر أو نثر ، فإنها تصير كالدرة في وسط العقد ، تسترعي الأنظار ، وتدهش العقول ، وتبهر الألباب .

(٢) إعجاز القرآن ص٢٦ وما بعدها .

بيانـه ، وتدهشك براعته في التحليل وقدرته على إيـراد الحجـج والبراهين وحين يفـاضل بـين أسلوب القرآن وبين غيره من أساليب العرب تشعر أنك أمام أديب قد بلـغ القمـة في الفصاحـة والبيان ، وعالم متمكن خبير ، لا يعوزه الدليل ، ولا يتأبى عليه التحليل .

وهو يتفق مع الرماني في فكرة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، فكلاهما يجعل الناحيـة البلاغية وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، إلا أنه بسط القول في هـذه الناحيـة أكثر من الرماني فبينما نراه يستفيض في الحديث عن النظم في القرآن مظهـراً محاسنه ومبرزاً أسـراره ومستخرجاً دقائقه ، نرى الرماني ينوه إلى النظم القرآني تنويهاً ويسـميه "نقـض العـادة" وبينمـا نرى الباقلاني يستفيض في الحديث عن الموازنـة بـين أسـلوب القـرآن وبـين غـيره مـن أسـاليب العرب ، نرى الرماني يشغل نفسه بالحديث عن المقارنه بين بعـض النواحـي البلاغيـة في القـرآن الكريم وبينهـا في أسـاليب العـرب كالمقارنـة بـين الإيجـاز في القـرآن الكريـم وبينـه في أسـاليب العـرب ، وهـذا وإن كان عملاً مشـكوراً مـن الرمـاني إلا أنـه لا يصـل بـه إلى مـا وصـل إليـه الباقلاني .

وقد لاحظت على الباقلاني أثناء عرضه لرأيه في إعجاز القرآن الأمانـة العلميـة فهـو يعـترف بأنه استفاد من دراسات السابقين في هـذا المجال ، يستبين هذا مـن قولـه في صـدر كلامـه عـن الإعجاز :" وقد ذكر أصحابنا وغيرهم " ففي هذه العبارة اعتراف من الباقلاني بأنه استفاد مـن الدراسات السابقة في الإعجاز ، وهذا الاعتراف لا يقلل من جهوده في هـذا المجـال فهـو وإن كان قد استفاد من دراسات السابقين إلا أننا لا ننكر فضله وجهده في إخراج هـذه الدراسـات والكشف عن حقيقة الإعجاز القرآني وإبرازها للعيان بما أقام لها من الشواهد القرآنيـة والأدبيـة وبما أضفاه عليها من الرونق والبهجة بحسن بيانه وعميق فهمه .

ثم تحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم "الشريف الرضي" المتـوفي سـنة ٤٠٦هـ في كتابـه "تلخيص البيان في مجازات القرآن" وإن الناظر في كتابه هذا يرى أنه يرد إعجاز القرآن إلى جمال ألفاظه ، وأسلوبه البديع ، ومجازه العجيب ، وقـوة تـأثيرة في النفـس الإنسـانية ، وكـون ألفاظـه

موحية بمعانيه ، ومعانيه خادمة لأهدافه ومقاصده ، ويستبين هذا من تعليقه على قوله تعالى ﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم﴾[1] "المعنى أنهم استقروا في الأوطان ، وهذا من صميم البلاغة ولباب الفصاحة ، وقد زاد اللفظ المستعار هنا معنى الكلام رونقاً ، ألا ترى كم بين قولنا استقروا في الإيمان ، وبين قولنا تبؤوا الإيمان"[2] .

ويستبين أيضاً من حديثه المستفيض عن المجاز في القرآن الكريم ، فقد تناول في كتابه السالف الذكر المجاز في القرآن كله ، فكان يعرض لكل سورة من سوره مستخرجاً منها الآيات التي فيها مجاز بياني ، ويكشف عما فيها من وجوه المجاز ، والاستعارة ، والبيان ، موضحاً معاني الكلمات ، مستشهداً بالكثير من الأبيات الشعرية والنوادر الأدبية ، مشيراً إلى ما في الآيات من القراءات القرآنية ، مورداً الجم الكثير من الأمثال العربية ، حتى أن الناظر في كتابه يعتبره معجم لغة ، وديوان أدب ، ومجمع نوادر ، وكتاب بلاغة .

ولقد بين كثيراً من غرائب آيات القرآن ، وأوضح طائفة من غوامض أسراره ، وكشف عن بدائع متشابهاته ، وأبان عن لطائف تأويله ، وعبر عن سر إعجازه فخدم العربية والقرآن وفنون اللغة .

وهو لا يقصد بالمجاز في القرآن الكريم المجاز اللغوي المصطلح عليه عند علماء البيان ، وإنما يطلق كلمة مجاز على معنى أعم يشمل المجاز العقلي واللغوي ، والتشبيه جملة ، ويستبين هذا بعرض بعض المجازات التي أشار إليها في كتابه ، فمنها أنه أورد قوله تعالى ﴿وَسْئَلِ القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها﴾[3] .

وعلق عليه بقوله :" وهذه استعارة ، من مشاهير الاستعارات ، والمراد واسأل أهل القرية التي كنا فيها ، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها " [4] وهذه ليست استعارة على طريقة المتأخرين

---

(١) الحشر : ٩ .
(٢) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغني حسن ط. عيسى الحلبي سنة ١٩٥٥ م ص١٠٤ .
(٣) يوسف : ٨٢ .
(٤) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغني حسن ط. عيسى الحلبي سنة ١٩٥٥م ص٣٥٢ .

من علماء البيان وإنما هي مجاز مرسل علاقته المحلية ، أو إيجاز بالحذف .

كذلك نراه يورد من الشواهد قوله تعالى ﴿**فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً**﴾[1] ويعلق عليه بقوله : " وهذه استعارة ، والمراد بها أن الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب أو طارق كرب لشابوا في ذلك اليوم ، لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله ، وذلك كقول القائل ، قد لقيت من هذا الأمر ما تشيب منه كناية عن فظيع ما لاقى ، وعظيم ما قاسى " [2] .

والآية على طريقة المتأخرين من علماء البيان ليست من قبيل الاستعارة ، وإنما هي من قبيل المجاز العقلي من باب استناد الفعل إلى زمنه ، وكذلك نراه يورد من الآيات قوله تعالى ﴿**خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب**﴾[3] ويعلق عليه بقوله : "وهذه استعارة"وحقيقة هذا الماء أنه مدفوق لا دافق ، ولكنه خرج على مثل قولهم " سر كاتم ، وليل نائم " [4] .

والآية ليست من قبيل الاستعارة على طريقة المتأخرين من علماء البيان ، وإنما هي كسابقتها من قبيل المجاز العقلي .

هذا ملخص رأي الشريف الرضي في إعجاز القرآن البلاغي ، وقد عرضه عرضاً حسنا ، إلا أنه يلاحظ عليه أنه يجعل المجاز وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وهذا أمر لا نوافقه عليه ، لأن المجاز في القرآن ليس محل اتفاق بين العلماء ، فمنهم من أجازه ، ومنهم من أنكره ، والكثيرون من العلماء على إنكاره في القرآن الكريم ، وحتى من أجازه منهم لم يجزه على إطلاقه ، وإذا كان كذلك فلا يحسن أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، اللهم إلاّ إذا أراد من المجاز في القرآن الكريم الصورة البيانية الشاملة لجميع ألوان البيان العربي كما هو واضح من تعليقه على بعض الآيات التي أوردها .

---

(١) المزمل : ١٧ .
(٢) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغني حسن ص١٧٣ ط. عيسى الحلبي سنة ١٩٥٥م .
(٣) الطارق : ٥-٧ .
(٤) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغني حسن ص٣٥٢ ط . عيس الحلبي سنة ١٩٥٥م .

ثم تحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم بعد ذلك " الإمام عبد القاهر الجرجاني " المتوفي سنة ٤٧١هـ .

فألف في الإعجاز في القرآن الكريم كتابين هما " الرسالة الشافية " [١] و "دلائل الإعجاز" وإن الناظر في هذين الكتابين يرى أن عبد القاهر يرجع الإعجاز في القرآن الكريم إلى نظمه فقط ، فهو الوجه الوحيد عنده الذي من جهته كان الإعجاز في القرآن الكريم .

وقد صرح بهذا فقال متسائلاً : "ماذا أعجز العرب ؟ وعن ماذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ، ثم يعود عبد القاهر فيجيب عن ذلك بقوله : أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، ومبادئ راعتهم من مبادئ آيه ، ومقاطعها ، ومجاري ألفاظه ، ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ، وترغيب في كل حجة وبرهان ، وصفة بيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشر عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح مكاناً أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً ، وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم ، ولوحك بيافوخه السماء موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول " [٢] ولما كان النظم هو الوجه الوحيد الذي حصل الإعجاز من جهته عند عبد القاهر فإننا نراه يهتم به اهتماماً عظيماً ويفصل الكلام فيه فيكشف عن حقيقته ، ويبين مقوماته ، وأصوله ، فيعقد له فصلاً خاصاً في كتابه "دلائل الإعجاز" وإنَّ من يقرأ كلامه في هذا الفصل يدرك أنه يريد بالنظم تلاؤم المعاني في الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى العام المقصود في جمال وقوة وأن هذا التلاؤم إنما يتم بفضل علم النحو ، وفي هذا يقول :"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه

---

(١) طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، بتحقيق الدكتورين محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام.
(٢) دلائل الإعجاز ص٢٨-٢٩ .

التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها "[1] ويقول أيضاً : " هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم ، وأنك ترتب المعاني أولاً في نفسك ، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك "[2] .

ثم نراه في هذا الفصل يفرق بين نظم الحروف ، والكلمات فيقرر أن نظم الحروف إنما يكون بحسب تواليها في النطق ، ونظم الكلمات إنما يكون بترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، وفي هذا يقول : " إن نظم الحروف يأتي بحسب تواليها في النطق ، وليس نظمها – أي الحروف – بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، أي كنظم الحروف لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني ، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ، وكذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف ، والصياغة ، والبناء ، والوشيء ، والتحبير ، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك ، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح[3] .

ثم يقرر عبد القاهر أن المعاني هي الأسس الذي يجب أن يراعي عند نظم الكلام ، ثم تأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني ، وفي هذا يقول : " وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاصقة بها ، وأن العلم بمواقع المعنى في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق ، وأعلم أنك إذا راجعت نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك ألا نظم في الكلم ، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب تلك " [4] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ص٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ص٣٨ .

ونراه في هذا الفصل أيضاً يقرر أنه لا سبيل للوصول إلى معرفة وجه الإعجاز في القرآن إلا باستقراء كلام العرب ، وتتبع أشعارهم ، ودراستها دراسة نقدية ، وفي هذا يقول : " وصح ألا غنى بالعاقل عن معرفة هذه الوجوه ، والوقوف عليها ، والاحاطة بها ، وأن الجهة التي منها يقف ، والسبب الذي به يعرف استقراء كلام العرب ، وتتبع أشعارهم ، والنظر فيها " .

ثم طبق الجرجاني ما دعا إليه ، فعقد موازنات بين الشعراء الذي تناولوا موضوعاً معيناً ، وذلك في كتابيه " دلائل الإعجاز " و " الرسالة الشافية " [1] .

ثم يطلب عبد القاهر من الباحث عن الإعجاز في القرآن الكريم أن يكد ذهنه ، ويطلب بنفسه المزايا والخصائص التي امتاز بها نظم القرآن الكريم ، ليقف عليها ، لا أن يقلد في ذلك ، فيجري وراء من سبقه في هذا الباب فيقول بعد أن يذكر طرفاً من خصائص ومزايا نظم القرآن الكريم :

" فبنا أن ننظر أي شيء أشبه بالفتى في عقله ودينه ، وأزيد له في عمله ، ويقينه ، أن يقلد في ذلك ؟ ويحفظ متن الدليل ، وظاهر لفظه ، ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هي ؟ ومن أين كثرت الكثرة العظيمة ، واتسعت الاتساع المجاوز لوسع الخلق ، وطاقة البشر ؟ وكيف يكون أن تظهر ألفاظ محصورة ، وكلم معدودة معلومة ؟ ، بأن يؤتى ببعضها في أثر بعض ، لطائف لا يحصرها العدد ، ولا ينتهي بها الأمد ، أم أن يبحث عن ذلك كله ، ويستقصي النظر في جميعه ، ويتتبعه شيئاً فشيئاً ، ويستقصيه باباً فباباً ، حتى يعرف كلاً منها بشاهده ودليله ، ويعلمه بتفسيره ، وتأويله ويوثق بتصويره وتمثيله لا كمن قيل فيه :

يقولون أقوالا ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا [2]

هذا هو رأي عبد القاهر في إعجاز القرآن وملخصه أن إعجاز القرآن يعتمد على النظم ، والتأليف ، والنظم عنده ليس تأليف الحروف والكلمات كل بحسب مخارجها وإنما النظم عند

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٢٦-١٢٧ من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ودلائل الإعجاز ص ٣٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٩ والبيت لأنس بن أنيس " الكامل للمبرد جـ١ سنة ١٣١٦هـ . نهضة مصر " .

الجرجاني هو ترتيب المعاني أولاً ثم تأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني ، والنظم هنا لابد أن يخضع لقواعد النحو وأصوله .

ولم يكن عبد القاهر أول من جعل النظم وجها لإعجاز القرآن ، وإنما هو مسبوق بذلك ، فقد سبقه إليه الأصفهاني فقد قال في تفسيره في معرض كلامه عن الإعجاز "فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص ، وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه [(١)] ، ثم يقسم الاصفهاني الكلام إلى خمس مراتب ويقصد بها أنواع الكلام من حيث المنظوم والمنثور ، والمسجوع ، والمحاوره ، والرسالة ، وغير ذلك فيقول :"والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها ، يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له : رسالة أو خطابة ، أوشعر ، أو سجع ، كما يصح أن يقال : هو كلام ، والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ماعداه من النظم ، ولهذا قال تعالى ﴿إنه لكتاب عزيز ❁ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾[(٢)] تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الأخرى " [(٣)] .

وسبقه إليه أيضاً " الرماني " و " الباقلاني " كما رأينا ، إلا أن عبد القاهر وإن كان يتفق معهما في فكرة الإعجاز إلا أنه يختلف عنهما في أنه جعل النظم الوجه الوحيد لإعجاز القرآن ورفض جميع ماعداه من الوجوه أما هما فقد جعلا النظم وجهاً من وجوه الإعجاز وعبد القاهر وإن كان مسبوقاً بهذا الوجه – أعني النظم إلا أن دراسته له كانت أوسع وأشمل وأعمق من دراسة السابقين له ، فقد توسع في الكلام عنه ، فقدم لنا بحوثاً بلاغية قيمة ، وفتح آفاقاً جديدة في دراسة الأسلوب تعتمد على الذوق الفني ، والنقد العلمي ، لا على التقليد .

ثم تحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم بعد عبد القاهر الجرجاني " ابن أبي الأصبع المصري " المتوفي سنة ٦٥٤هـ فقد ألف في إعجاز القرآن كتابين هما : " البرهان في إعجاز

(١) الإتقان للسيوطي جـ٢ ص١٢٠ .
(٢) فصلت : الآية ٤١-٤٢ .
(٣) الإتقان للسيوطي جـ٢ ص١١٩-١٢٠ .

القرآن " و " بديع القرآن " والثاني تتمة للأول كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه فقال : "كتاب بديع القرآن الذي هو تتمة للإعجاز المترجم" ببيان البرهان " أفردته من كتاب هو وظيفة عمري [1] ويقصد بالكتاب " تحرير التحبير " لأنه هو الذي اختصر منه " بديع القرآن " وكتابه " البرهان " من الكتب المفقودة التي لم تصل إليها ايدي الباحثين بعد ، إذن فليس لدينا من المصادر ما نعتمد عليه في الكشف عن رأيه في الإعجاز سوى كتابه " بديع القرآن " وإن الباحث إذا أمعن النظر في هذا الكتاب ، يتضح له أن ابن أبي الاصبع يرجع السر في إعجاز القرآن الكريم إلى ما اشتمل عليه أسلوبه من الحلي البديعية البعيدة عن التكلف ، والتعمل ، والصنعة ، أوبعبارة أدق إلى النظم البديعي البريء من التكلف والصنعة فهو يرى أن نظم القرآن البديعي دونه كل نظم وأنه امتاز بميزات وخصائص لا يوجد لها مثيل في كلام صفوة البشر من البلغاء ، والأدباء ، ودهاقين الكلام ، وأنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل نظم القرآن حتى يلج الجمل في سم الخياط ، فهذا النظم قد حوى صفات الأدب الخالدة ، ومميزاته النفسية فالقرآن إذا تحدث حرك المشاعر ، وهز العواطف ، وأسال الدموع من العيون ووصل معناه إلى قلبك ، قبل أن يصل لفظه إلى أذنك ، وإذا صور أذهل العقول ، وأتى بالعجب العجاب ، وجسم المعاني ، فسهل على البشر إدراكها ، استمع إليه حين يصور الندم وعذاب الضمير فيقول : **﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾** ويقول : **﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ۞ يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ۞ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ۞﴾**[2] ، واستمع إليه حين يصور لك النار وعذابها فيقول **﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل من مزيد ﴾**[3] ويقول **﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾**[4] ويقول **﴿تكاد تميز من الغيظ﴾**[5] ، واستمع إليه حين يصور لك موقف الاحتضار ، وما يدور بخلد المحتضر من الفراق ، والتفاف

---

(١) بديع القرآن ص٣ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .
(٢) الفرقان : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) ق : ٢٩ .
(٤) الفرقان : ١١ .
(٥) الملك : ٨ .

الأهل والأحبة حوله فيقول ﴿ **كلا إذا بلغت التراقي ۞ وقيل من راق ۞ وظن أنه الفراق ۞ والتفّتْ الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ۞**﴾[1] واستمع إليه حين يصف ، فيستقضي جميع الصفات والجوانب فيقول ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذُرِّيَّة ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت** ﴾[2] .

إلى غير ذلك من الصور التي يقف أمامها أساطين البيان مذهولين متعجبين عاجزين .

من أجل ذلك اهتم ابن أبي الأصبع ببديع القرآن ، فغاص في بحار القرآن الكريم باحثاً ومنقباً عن جواهره ، ولآلئه ، كاشفاً عن روعتها وسحرها ، موضحاً أثرها في نظمه ، وما تُضْفيه على أسلوبه من الحسن والجمال ، وعلى معناه من القوة التي تسيطر على النفس الإنسانية ، وتسولي على أحاسيسها ومشاعرها ، ولقد فتن بذلك ، حتى استطاع أن يستخرج الجم الكثير من الألوان البديعية من القليل من الألفاظ القرآنية ، ولم يكتف باستخراج هذه الألوان ، بل قارن بين النظم البديعي في القرآن ، والنظم البديعي في كلام العرب ، ليثبت لنا الإعجاز في القرآن الكريم ، عن طريق هذا النظم البديعي الذي فاق كل نظم ، ومن غوصه على البديع في القرآن ما ذكره في باب " الإبداع" فقد أتى بقوله تعالى ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجوذي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين** ﴾[3] .

واستخرج من هذه الآية الكريمة التي يبلغ عدد ألفاظها سبع عشرة لفظة أحداً وعشرين ضربا من البديع وبينها فقال :" وتفصيل ما جاء فيها من البديع " المناسبة التامة" في " ابلعي ، وأقلعي " "والمطابقة اللفظية " في ذكر السماء والأرض " والاستعارة "في قوله :" ابلعي ، وأقلعي " للأرض والسماء ، "والمجاز" في قوله " ياسماء " فإن الحقيقة "ويامطر السماء اقلعي"

---

(١) القيامة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) البقرة : ٢٦٦ .
(٣) هود :٤٤ .

"والإشارة" في قوله : "وغيض الماء" فإنه سبحانه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ، لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء ، وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء ، فينقص الحاصل على وجه الأرض ، من الماء " والإرداف " في قوله "واستوت على الجودي" فإنه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان ، وجلوسها جلوساً متمكناً ، لا زيغ فيه ، ولا ميل ، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب ، من لفظ الحقيقة ، " والتمثيل " في قوله "وقضي الأمر" فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ، ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف ، والتعليل ، لأن غيض الماء علة الاستواء ، " وصحة التقسيم " حيث استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء ، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض ، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض ، " والاحتراس " في قوله " وقيل بعداً للقوم الظالمين " محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لا يستحق الهلاك ، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقو الهلاك ، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه .

"والانفصال " فإن لقائل أن يقول : إن لفظة " القوم " مستغنى عنها ، فإنه لو قيل "وقيل بعدا للظالمين" لتم الكلام ، والانفصال عن ذلك ، أن يقال : لما سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله ﴿**وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه**﴾[1] وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوح عليه السلام ﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾[2] فاقتضت البلاغة أن يؤتي بلفظة القوم التي آلة التعريف فيها للعهد ، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله "وكلما مر عليه ملأ من قومه " ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون ، بقوله " ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " .

فحصل الانفصال عن الإشكال ، وعلم أن لفظه " القوم " ليست فضلة في الكلام . "والمساواة " لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ، ولا ينقص عنه ، "وحسن النسق" في عطف

(١) هود : ٣٨ .
(٢) هود : ٣٧ .

القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأولاً ، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع ، ثم عطف غيض الماء على ذلك ، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ، ونجاة الناجين ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين ، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود ، " والتلاف اللفظ مع المعنى " لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها " والإيجاز " لأنه سبحانه قص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء في أخصر عبارة بألفاظ غير مطولة "والتسهيم " لأن من أول الآية إلى قوله تعالى "اقلعي" يقتضي آخرها . "والتهذيب" لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد ، وأسبابه ...

" وحسن البيان " من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شيء منه .

" والتمكين " لأن الفاصلة مستقرة في قرارها ، غير قلقة ولا مستدعاة ، "والانسجام" وهو تحدر الكلام بسهولة ، وعذوبة سبك مع جزالة لفظ ، "والإبداع " إذ في كل لفظة بديع وبديعان ، ثم بعد أن بين ما في الآية الكريمة من ألوان البديع علق عليها بقوله :

" فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لتقدره قدره"[1] .

ومن غوصه على بديع القرآن ما ذكره في باب " صحة المقابلات " فإنه أتى بقوله تعالى ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله** ﴾[2] ثم استخرج من بعض هذه الآية كثيراً من الألوان البديعية ، ووضح أثرها في النظم ، وهذه

(١) بديع القرآن ص ٣٤٠-٣٤٣ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .
(٢) القصص :٧٣ .

الأسلوب هي : " المطابقة " بين الليل ، والنهار ، والسكون ، وابتغاء الفضل ، و "التعليل " في قوله سبحانه " لتسكنوا ، ولتبتغوا " . "والإرداف" في قوله "ولتبتغوا من فضله " فلفظ الحقيقة "ولتتحركوا " لكن القرآن عدل عنه إلى لفظ هو ردفه ، وتابعه وهو " ولتبتغوا من فضله " ثم بين السبب في عدول القرآن عن لفظ الحقيقة إلى الإرداف فقال : "والذي أوجب العدول عن لفظ الحركة إلى "ابتغاء الفضل" كون الحركة لمصلحة ، ولمفسدة ، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة ، والآية سيقت للاعتداد بالنعم فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه ، ليتم حسن البيان . "وحسن البيان لمجئ الكلام فيها متلاحماً آخذة أعناق بعضه ببعض . "وحسن النسق " فالجمل قد عطف بعضها على بعض بأحسن ترتيب " والإشارة " لأن القول الكريم على قلة ألفاظه قد أشار ، وألمح إلى كثير من المنافع ، والمصالح " والائتلاف " فألفاظ القول الكريم مؤتلفة مع معناه أتم ائتلاف وأحسنه "[1] .

وفي باب " صحة التفسير " يسوق قوله تعالى ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون** ﴾[2] ثم يقف أمام النص الكريم متأملاً ، مفكراً معجباً ، ثم يغوص في قاعه ، فيستخرج لنا من اللآلئ البديعية ما يبهر ، ويعجز فيقول : " فأتت صحة التفسير في هذه الآية مقترنة بصحة التقسيم ، واندمج فيهما الترتيب ، والتهذيب ، وحصل الائتلاف بحصول الترتيب ، إذ قدم سبحانه النبات ، وانتقل على طريق البلاغة المرضي في النظم إلى الأعلى ، فثنى بأشرف الحيوان ، ليستلزم ذكره بقية الحيوان ، ثم ثلث بقوله " ومما لا يعلمون " فانتقل من الخصوص إلى العموم ، ليدخل تحت هذا العموم كلما اختص الخالق سبحانه وتعالى بعلمه من المولدات الثلاث من مجهول النبات ، والحيوانات والجمادات ، وسائر المخلوقات ، من كل موجود سواه سبحانه ، فحصل الترقي في النظم على سنن الفصاحة ، والمشي على نهج البلاغة ، وأتت الفاصلة في غاية التمكن "[3] .

---

(١) بديع القرآن ص ٧٣-٧٤ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .

(٢) يس : ٣٦ .

(٣) بديع القرآن ص٧٦ – ٧٧ تحقيق المرحوم حفني شرف .

وفي باب " صحة التفسير " أيضاً يسوق من الشواهد قوله تعالى ﴿**والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم مَنْ يمشي على أربع**﴾[1] .

ثم يسرد ما اشتمل عليه النص الكريم من الألوان البديعية ، ويستفيض في شرحها ، موضحاً أثرها في النظم ، فيقول : " فذكر سبحانه الجنس الأعلى ، مقدماً له حيث قال : "كل دابة" فاستغرق أجناس كل ما دب ، ودرج ، ثم فسر هذا الجنس الأعلى بالأجناس المتوسطة والأنواع حيث قال : " فمنهم" و"منهم" مراعياً الترتيب ، إذ قدم ما يمشي بغير آلة لكون الآية سيقت لبيان القدرة ، والتمدح بها ، وتعجب السامع منها ، وما يمشي بغير آلة أعجب مما يمشي بآلة فلذلك اقتضت البلاغة تقديمه ، ثم ثني بالأفضل فالأفضل ، فأتى بما يمشي على رجلين ، وهو الإنسان والطائر ، لتمام خلق الإنسان ، وكمال حسن صورته ، وهيئته المقتضية تخصيصه بالعقل ولما في الطائر من عجب الطيران في الهواء ، الدال على غاية الخفة ، ونهاية اللطف ، مع ما فيه من كثافة الأرضية ، وثلث بما يمشي على الأربع ، لأنه أحسن الحيوان ، وأقواه ، تغليباً له على ما يمشي على أكثر من الأربع ، من الحشرات ، فاستوعب جميع الأقسام ، وأحسن الترتيب قارناً للتقسيم والترتيب في صحة التفسير ، إلى ما تضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية من الإشارة والائتلاف " وحسن البيان " [2] .

وفي باب " الإيضاح " يسوق من الشواهد قوله تعالى ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ ثم يستخرج منه على قلة ألفاظه ستة عشر ضرباً من البديع ، بل يستخرج لنا من حرف واحد من النص الكريم هو "ثم" ثمانية أضرب من البديع ، ثم يوضحها أتم توضيح فيقول : " فتضمنت هذه اللفظات السبع ستة عشر ضرباً من البديع ، وهي التعليق ، والمطابقة المعنوية والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيت ، والمقارنة ، والإيضاح ، والإدماج ، والترشيح ، والإيغال ، والإيجاز ، والافتنان ، وحسن النسق ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر ،

---

(١) النور : ٤٥ .

(٢) بديع القرآن ص٦٥ – ٧٦ تحقيق المرحوم الدكتور حفني محمد شرف .

وأعجب ما وقع فيها أن حرفاً واحداً منهـا وقـع فيـه على انفراده مـن ذلـك ثمانيـة أضـرب ، والحرف لفظة " ثـم " وقـع فيهـا الاحـتراس ، والتنكيـت ، والمقارنـة والإيضـاح ، والإدمـاج ، والتكميل ، وحسن النسق ، والترشيح ، توجـد هـذه الضـروب ، بوجودهـا وتنعـدم بعدمهـا ، وبيان ذلك أنا لو قدرنا موضعها الواو سقط ذلك كله ، ثم أخذ في تفصيل الألوان البديعية التي اشتملت عليها الآية فقال : "فأما تفصيل ما جاء من المحاسن في جملة الآية " فالإيضاح " منهـا في عطف آخر الكلام على أوله ، بـ " ثـم " لتحصـل الفـائدة التي شـرحناها ، ولأجلهـا أتـى بالآيـة ، وهي تبشير المؤمنين بأن عدوهم مخذول أبدا و " الإدمـاج " وهـو إدمـاج التكميـل في الإيضاح ، فإن الكلام الآخر لـو عطـف علـى الأول بـالواو لظـن مـن لا يحـب أن يتسـرع إلى الموت ، إنما وعدوا بالنصر في تلـك الحالـة لا غـير ، ويحتمـل أن ينصـر العـدو بعـد هـذه ، لأن الحرب أكثر ما يقع سجالاً ، فيكون ذلـك موجبـاً لقعوده عـن القتـال ، بعدهـا فـأتى بالجملـة الثانيـة معطوفة بـ " ثم " ليحترس بها مـن ذلـك . و " التنكيـت " وهـو النكتـة التـي رجحـت العطف بـ " ثم " دون بقية حروف العطف ، لما يقتضي من المهلة الملائمة ، لما يدل عليـه الفعـل المضارع من الاستقبال لتكميـل المعنـى المـراد ، وأمـا التعليـق وهـو تعليـق الوعيـد بـالوعد فإنهـا تضمنت وعد المؤمنين بالنصر ، ووعيد الكافرين بالخذلان ، وأما المطابقة المعنوية فلجمع الكلام بين الوعد والوعيد بغير لفظهما ، وأما المقارنة فلاقتران الافتنان الذي دل عليه الوعد والوعيـد ، والمدح والهجاء بالمطابقة ، وأما الإيغال فلأن معنى الكلام تم عند قوله : "يولوكم الأدبار" ولمـا احتاج الكلام إلى فاصلة توافي بقية فواصل الآي أفادها معنى زائداً يكمـل معنـى الكـلام التـام ، وأما الترشيح فهـو ترشيـح "ثـم" لمجيئ الفعـل الثـاني الـذي عطـف بهـا علـى الأول دال علـى الاستقبال ، وأما الإيجاز فدلالة هذه الألفـاظ السبع على مـا دلـت عليـه مـن معـاني النفـس ، ومعاني البديع ، وأما الافتنان فإشارة الوعد والوعيد إلى أن من سـبق لهم الوعد أهل للمـدح ، ومن سبق لهم الوعيد أهل للذم ، وأما حسن النسق ، ففي اختيار العطف بـ "ثم" دون حروف النسق وأما التهذيب ففي تقديم ما يجب تقديمه من الوعـد في حـال المقابلـة ، وتـأخير مـا يجـب تأخيره من الوعد والوعيد بعد ذلك في الاستقبال ، وملاءمة العطف بـ"ثـم" للمعطـوف حيـث

كانت صيغته صيغة المضارع الدال على الاستقبال ، وأما حسن البيان فلإبانتها عن بشارة المؤمنين بما يثبت قلوبهم ، ويثلج صدورهم ، ويحرضهم على قتل المشركين " أبدا بأرشق عبارة دلت على المعنى المراد ، وأوصلته إلى الأفهام بأقرب الطرق ، وأسهلها ، وأما المثل السائر فلخروج الكلام فيها مخرج مثل يليق بكل واقعة تشبه واقعتها [1] .

وفي باب "جمع المختلفة والمؤتلفة" يورد شواهد من القرآن ، ومن الشعر ثم يوازن بين النظم البديعي القرآني ، والنظم البديعي الشعري ، ثم يفضل نظم القرآن لجودة بديعه ، وكثرته ، ومن ذلك موازنته بين قول الخنساء في أخيها صخر ، وقد أرادت مساواته في الفضل بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الولد فقالت :

جاري أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحضر
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا إلى وكر
حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعذر [2]
وعلا هتاف الناس أيهما قال المجيب هناك لا أدري
برقت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

وقوله سبحانه وتعالى ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما ، وعلما﴾[3] وملخص الموازنة أن قول الخنساء والنص الكريم اشتركا في أن كليهما فيه مساواة للولد بالوالد في الفضل ، ثم ترجيح الولد ثم الرجوع إلى المساواة بينهما مراعاة لحق الوالد ، إلا أن النص الكريم فاق قول الخنساء وبيان ذلك كما أشار إليه ابن أبي الأصبع نفسه أن الخنساء قد سوت بين

---

(١) بديع القرآن ص٢٦١-٢٦٥ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .
(٢) العذر : جمع عذار وهو السير الذي يكون على خد الدابة من اللجام .
(٣) الأنبياء : ٧٨-٧٩ .

أخيها وأبيها بقولها :

وهما وقد بــــرزا كأنهما ... صقران قد حطا إلى وكر

حتى إذا نزت القلوب وقد ... لزت هناك العذر بالعذر

وهي تريد بذلك أن عذر اللحم لز بعضها بعضا ، وهذا يدل على المساواة في العدو ثم قالت في ترجيح الوالد : " برقت صحيفة وجه والده " تعني أنه خرج وجهه من الغبار دون وجه رسيلة سبقا ، ثم قالت في إلحاق الولد بالوالد في الفضل :

أولى فأولى أن يســــاويه ... لولا جلال السن والكبر

تريد أن الولد كان قادراً على مساواة الوالد ، وما أولاه بذلك لولا ما التزمه من الأدب مع بر أبيه ومعرفته بحقه فغض من عنانه ،وخفض جناح فضله ليؤثر أباه بالفضل على نفسه وأما الآية الكريمة ، فقد ساوت بين داود وسليمان في التأهل للحكم ، وشركت بينهما فيه حيث قالت : " إذ يحكمان في الحرث " ثم فضلت سليمان فقالت : " ففهمناها سليمان " ثم رجعت إلى المساواة بعد الترجيح فقالت : " وكلاً آتينا حكما " مراعاة لحق الوالد فقام حق الأبوة مقام الفضيلة التي اختص بها سليمان فحصلت المساواة ، إلا أن الآية الكريمة فاقت قول الخنساء : لاشتمالها على ضروب من المحاسن البديعية خلا منها قول الخنساء ، ومن هذه المحاسن "الالتفات" في قوله تعالى ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ و " التنكيت " فإن النكتة التي من أجلها جمع الضمير الذي كان من حقه أن يكون مثنى هي الإشارة إلى أن هذا الحكم متبع يجب الاقتداء به لأنه عين الحق ، ونفس العدل ، وكيف لا يكون ذلك ، وقد أخبر سبحانه أنه له شاهد أي هو مراعي بعينه عز وجل و"الإدماج" لأن التنكيت قد أدمج في الالتفات [1] وأنا أزيد على ابن أبي الأصبع في المفاضلة جزالة الألفاظ القرآنية ، وعذوبتها ، وحسن سبكها ، وسهولتها ، وحلاوة جرسها ونغمة موسيقاها ، وإيمائها بمعانيها .

---

(١) بديع القرآن ص١٣١ -١٣٢ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف ، وتحرير التحبير ص٣٤٧-٣٤٨ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .

وفي باب " التذييل" يسوق من الشواهد قول المتنبي :

تُمْسِي الأماني صرعى دون مبلغة   فمـا يقول لشيء ليت ذلك لي

وقول ابن نباتة السعدي :

لم يبق جـودك لي شيئا أؤمله   تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

ويوازن بينهما ، وبين قوله تعالى ﴿ **وله كل شيء** ﴾[1] .

ووجه الموازنة أن كلا من الشاعرين قد بالغ في مدح ممدوحه ، والنص الكريم فاقهما في المبالغة لعمومه ، فيقول : "فإن لفظة "كل" تستغرق جميع الأشياء التي يقع واحدها على البسيط ، والمركب ، والقديم ، والمحدث ، والخالق ، والمخلوق ، وإن كان وقوعها ها هنا على كل موجود سوى الله تعالى ، وكل معلوم ممكن الوجود " [2] .

وفي باب "صحة الأقسام " يوازن بين نظم القرآن ، وبين نظم محمود كلام العرب ، فيذكر قوله تعالى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون** ﴾[3] .

ثم يبين ما اشتمل عليه القول الكريم من ضروب البديع ، ثم يوازن بينه ، وبين قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله   ولكنني عن علم ما في غدٍ عم [4]

فيقول : " أما الآية الأولى فقد استوعبت جميع الأصناف المحمودة ، إذ وصف المؤمنون فيها بجميع العبادات ، لأن العبادات كلها نوعان ، بدنية ، ومالية ، والبدنية قسمان : عبادة الباطن ، وعبادة الظاهر ، والمالية أيضاً قسمان : ما يشترك فيه المال والبدن ، كالحج ، والجهاد ، وما ينفرد به المال كالزكاة ، وصدقة التطوع على اختلاف أصنافها فقوله تعالى

---

(١) النحل : ٩ .
(٢) بديع القرآن ص ١٥٧ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .
(٣) البقرة : ٣-٤ .
(٤) ديوانه ص٢٩ طبع دار الكتب .

﴿يؤمنون بالغيب﴾ إشارة إلى عبادة الباطن ، لأن الإيمان التصديق ، وهو من أعمال القلب وقوله سبحانه ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ تصريح بعبادة الظاهر وقوله عز وجل ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ إشارة إلى العبادة المالية ، فاستوعبت جميع الأقسام على الترتيب حيث قدم عبادة الباطن على عبادة الظاهر ، وعبادة البدن على عبادة المال مع وصفه سبحانه لهم بالنزاهة عن جميع أوصاف الكسب المذمومة من الخيانة والسرقة ، والربا ، والغصب ، وجميع أنواع الظلم ، إذ أضاف عز وجل رزقهم لنفسه ، ليشير إلى أنه الحلال الطيب لأنه لا يضاف إلى الله سبحانه من الرزق إلا الحلال ، وأن الحرام من كسب العبد ، وأن كسبه ذلك بقضاء الله وقدره على المذهب الصحيح ، لكنه لا تجوز اضافته إلى الله سبحانه ، أدبا معه عز وجل وأما الآية الثانية فقد استوعبت أقسام الزمان في قوله تعالى ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾ فإن إيمان هؤلاء المؤمنين بما أنزل إلى الرسول ﷺ إيمان في الحال ، وبما أنزل من قبله إيمان في الماضي ، وإيقانهم بالآخرة إيمان في الاستقبال ، ثم زاد إيمانهم بالآخرة وصفاً إذا أخبر أنه إيمان متيقن ليدل بذلك على قوة تصديقهم للنبي ﷺ ، ووثوقهم بأن ما أخبر بوقوعه سيقع يقيناً لا شك فيه ، ولا شبهة فحصل في هذه الآية مع نهاية المدح صحة الأقسام في اللفظ والمبالغة في معنى المدح والإيغال في الفاصلة زاد بها المعنى زيادة ما حصلت إلا بها " [1] .

ثم بعد أن أوضح ما اشتملت عليه الآية الكريمة من جواهر البديع ، ولآلئه وازن بينها وبين قول زهير:

فقال : " وإذا نظرت بين معنى هذه الآية التي عدتها أثنتا عشرة لفظة ، وبين قول زهير ، وهو أجمل بيت جاءت فيه صحة التقسيم وأبلغه ، علمت مقدار ما بين البلاغتين ، وذلك أن عدة البيت ثلاث عشرة لفظة ، وفيه من زيادة اللفظ التي لم يؤت بها إلا لأجل الوزن والقافية لفظتان ، فإن ملخص معنى عجز البيت كله أن يقوله : "ولا أعلم ما في الغد " فاضطره الوزن والقافية إلى أن قال ما قال ، والحظ كم بين قافية البيت وفاصلة الآية وما تضمنته الآية من مدح

---

(١) بديع القرآن ص٧٠ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .

المؤمنين في الأزمنة الثلاثة ، وما في إجماع ذلك المدح من الإشارة إلى الإيمان بجميع كتب الله التي أنزلها ، وجميع رسله التي أرسلها ، وبما سيكون من أمر البعث وبما نطقت به الكتب من جميع ما فيه من الحساب والمساءلة ، والصراط ، والميزان ، والجنة ، والنار ، وجميع أصناف الثواب والعقاب ، وتفاصيل هذه الجملة التي لو عددت معانيها بألفاظها الموضوعة لها لملأت الأكوان ، وكانت كما أخبر عنها الرحمن بقوله تعالى ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾[١] وأين يقع البيت من الآية ، فإن بينهما من البعد ما بين المتكلم بهما " [٢] .

وفي باب " تجاهل العارف " يذكر من الشواهد القرآنية قوله تعالى ﴿ **ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم** ﴾[٣] . ثم يُبيِّنُ أن التشبيه في الآية الكريمة فاق تشبيه العرب ، والفضل في ذلك يرجع إلى النظم البديعي للآية الكريمة فيقول :"فجاء هذا اللفظ في الآية متجاوزاً تشبيه العرب كل من راعهم حسنة من البشر بالجن إلى تشبيه يوسف صلوات الله وسلامه عليه حين كان حسنه رائعاً ، وله مع الروعة نور وطلاقة ، وعليه سكينة ، تؤمن ناظره من تلك الروعة ، وتثبت قلبه ، لما يسري إليه من سكينة ، فكان كذلك تشبيهه بالملك الكريم أصح وأوقع ، وأشد مطابقة من أكثر الجهات "[٤] .

وفي باب " التنظير " نراه يوازن بين قول يزيد بن الحكم[٥] الثقفي من شعراء الحماسة :

يا بدر والأمثال يضد	ربها لذي اللب الحكيم
دم للخليل بوده	ما خير ودٍ لا يدوم
واعرف لجارك حقه	والحق يعرفه الكريم
واعلم بأن الضيف يو	ما سوف يحمد أو يلوم

---

(١) لقمان : ٢٧ .
(٢) بديع القرآن ص٧١ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .
(٣) يوسف : ٣١ .
(٤) بديع القرآن ص٥١ تحقيق المرحوم الدكتور حفني شرف .
(٥) الحماسة : شرح التبريزي ص٢٢٩ طبع أوروبا .

وبين قوله تعالى ﴿ **وبذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم** ﴾[١] .

وملخص الموازنة كما ذكر هو نفسه ، أن النص الكريم ، فاق النص الشعري بنظمه البديعي ، ذلك أن الآية حصل في نظمها ألوان من البديع خلا منها النص الشعري منها : "صحة التقسيم" لاستيفائها جميع أقسام من تجب الوصية به ، والإحسان إليه . "والإيجاز" و"المساواة" لكون لفظها طبق معناه . و"التهذيب" لما وقع فيها من حسن الترتيب ، إذ بدأ سبحانه بذي القربى ، وعطف عليهم اليتامى ، لما يجب من تقديمهم على المساكين وعطف الجار ذي القربى مقدماً ذكره على المساكين ، وأفرده بالذكر بعد دخوله في عموم المساكين لينبه على العناية به ، وعطف عليه الجار الجنب أي الصاحب ، وقدمه على الصاحب المجاور في السفر والحضر ، وعطف على ذلك ابن السبيل ، وختم الوصية بحسن الملكة"[٢] .

وهذه الأمثلة التي ذكرتها غيض من فيض مما يزخر به كتابه " بديع القرآن " من الحديث عن النظم القرآني ، والغوص وراء الحلي البديعية التي إليها يرجع السر في إعجاز القرآن الكريم وابن أبي الأصبع لا يحصر السر في إعجاز القرآن في نظمه البديعي بل هو يرى أنه بليغ بألفاظه وأسلوبه ، وتراكيبه ، وأثره في النفوس ، ويزيد على ذلك كله أنه معجز كذلك بما فيه من التراكيب البديعية التي يعرفها العرب ، والمتكلمون بالعربية ، ويسمون صاحبها بالبليغ أو البديعي ، ولذلك فقد اهتم بهذه الأنواع البديعية ، ومثل لها بآيات من القرآن ، وخرج هذه الآيات على الوجوه البلاغية ، والأنواع البديعية مبيناً في دراسته لهذه الأنواع سلامة نظم القرآن ، وسلامة أسلوبه وبلاغة معانيه ، وفصاحة ألفاظه ، والحق أن هذا الصنيع قد انفرد به ابن الأصبع ، فلم يصنع أحد من العلماء قبله صنيعه في تأليف كتاب تتميز فيه بلاغة القرآن ، وبديعه ، ليسهل من وراء ذلك استخراج إعجازه ، وتقريب طرق إطنابه ، وإيجازه .

وابن أبي الأصبع لا يقصد بالبديع المحسنات البديعية التي اصطلح عليها المتأخرون من

---

(١) النساء : ٣٦ .

(٢) بديع القرآن ص٢٣٩ تحقيق الدكتور حفني شرف .

علماء البلاغة كالجناس والطباق والتوريه ، وغيرها من المحسنات ، وإنما يقصد بالبديع جميع مباحث البلاغة الشاملة لعلومها الثلاثة عند المتأخرين ، وهي المعاني ، والبيان ، والبديع ، فهو حين تناول البلاغة بالدرس والتحليل لم يتقيد بصنع السكاكي في تقسيم البلاغة إلى هذه العلوم الثلاثة ، بل درسها على أنها " بديع " فجدد لها شبابها ، وعاد بها إلى عصرها الذهبي الذي كانت تدرس فيه دراسة أدبية فنية ذوقية بعيدة عن القضايا الكلامية ، والمسائل الفلسفية على يد عبد القاهر الجرجاني وغيره من الأدباء والنقاد المتذوقين لحلاوة اللغة العربية ، والواقفين على أسرارها ، ودقائقها ، والعالمين بطرق التعبير فيها يستبين هذا من تعليقه على الآيات القرآنية التي أوردها في كتابه " بديع القرآن " والتي ذكرنا طرفاً منها في الصفحات السابقة في هذا البحث ، إذ نراه يذكر من الأنواع البديعية ، المجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، وهي من مباحث " علم البيان " عند المتأخرين من علماء البلاغة ، ونراه يذكر من الحلي البديعية ، الإيجاز ، والمساواة ، والتذييل ، والاحتراس ، والتكميل ، والإيغال ، وهي من مباحث " علم المعاني " عند المتأخرين من علماء البلاغة ، ونراه يذكر من الألوان البديعة ، المطابقة والتقسيم ، والإرداف ، وهي من مباحث " علم البديع " عند المتأخرين من علماء البلاغة .

ودراسة ابن أبي الأصبع للنظم القرآني شبيهة بدراسة عبد القاهر الجرجاني ، فكلاهما يعتمد في دراسته على الذوق الفني ، إلا أن ابن أبي الأصبع قد توسع في دراسته للنظم القرآني ، واهتم به اهتماماً عظيماً ، حتى أفرد له كتاباً خاصاً سماه " بديع القرآن " والحق أنه قد أبدع في هذا البديع وأحسن غاية الإحسان ، وفاق من سبقه ، وأتى بما لم يأت به غيره من السابقين ، وهذه ليست مجاملة مني لابن أبي الأصبع لأنه مصري مثلي ، وإنما هي الحقيقة مجردة عن المجاملة والمبالغة ، يدركها كل من حباه الله ذوقاً رقيقاً يتمكن به من معرفة جيد الكلام من رديئه ، وتمييز غثه من ثمينه .

ثم تحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم " عز الدين بن عبد السلام " المتوفي سنة ٦٦٠هـ في كتابه "الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز " .

وأن من يُمْعِنُ النظر في كتابه هذا يـرى أنه يرد السر في إعجاز القرآن إلى إيجـازه ، ومجـازه وجمال ألفاظه ، وسهولتها وبديع نظمـه ، ومـن أجـل ذلـك فإننـا نـراه يتحـدث بإسـهاب عـن الإيجاز والمجاز في القرآن الكريم ، معتمداً في ذلك على ذوقه ، وعقله ، وثقافته الواسعة المترامية الأطراف ، كذلك نراه يوازن بين ألفاظ القرآن ، وبين غيرها مما هو موجود في لغة العرب ، ثم بفضل ألفاظ القرآن لجمالها ، وخفتها ، وما تضفيه علـى الأسـلوب مـن الروعـة ، والسـحر ، وعلى المعنى من قوة التأثير وقد بدأ في كتابه بالحديث عنالإيجاز فذكر أنـه " الاقتصـار علـى مـا يدل على الغرض مع حذف ، أو اضمار ثم أخذ في الحديـث عـن الإيجـاز بـالحذف في القـرآن الكريم ، وحصره في تسعة عشر نوعاً هي :

١- حذف المضاف .
٢- حذف المفعولات .
٣- حذف الموصوفات .
٤- حذف الأقوال .
٥- حذف الشروط .
٦- حذف أجوبة الشرط.
٧- حذف جواب " لو " .
٨- حذف جواب " لولا " .
٩- حذف القسم .
١٠- حذف أجوبة القسم .
١١- حذف المبتدأ .
١٢- حذف الخبر .
١٣- حذف بعض حروف الجر .
١٤- حذف الأفعال العاملة .
١٥- حذف المفاعيل التي يغلب حذفها .
١٦- حذف ضمائر الموصولات .
١٧- حذف فعل الأمر .
١٨- حذف الجملة .
١٩- حذف الجمل .

وقد ساق لكل نوع من هذه الأنواع الجـم الكثـير مـن الشـواهد القرآنيـة ، وقـام بشـرحها وتحليلها ، ثم ذكر فائدة الحذف فقال : " وفائدة الحـذف تقليـل الكـلام ، وتقريـب معانيـه إلى الأفهام " (١) .

وإليك أيها القـارئ الكريـم نمـاذج مـن الشـواهد القرآنيـة الـتي سـاقها وشـرحها ، وحللهـا

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص٢ .

بأسلوبه الخاص الذي يجمع بين الروعة الأدبية ، والدقة العلمية لكي تتعرف من خلالها على المجهود المشكور الذي بذله في هذا المجال ، وعلى مدى فهمه لأسرار النظم القرآني ، وما ينطوي عليه من الدقائق ، واللطائف التي لا يفطن إليها إلا أصحاب الأذواق السليمة ، ولا يصل إليها إلا ذوو المواهب الفنية ، ولا يستخرجها من كنوزها إلا العالمون بطرق التعبير في اللغة العربية فمن شواهد الإيجاز بالحذف التي ساقها قوله تعالى **﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾** أي حرمنا عليهم أكل طيبات أحل لهم أكلها ، أو تناولها ، ثم أشار الشيخ عز الدين بأن تقدير التناول أولى ليدخل فيه شرب ألبان الإبل فإنها من جملة ما حرم عليهم وهذه دقيقة تدل على عمق فهم الشيخ ، وسعة اطلاعه ، ومن الشواهد التي ساقها أيضاً قوله تعالى **﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾** ويعلق عليه بقوله : " فيحتمل حرم ركوب ظهورها ، ويحتمل حرمت منافع ظهورها ، وهو أولى ، لأنهم حرموا ركوبها وتحميلها "[1] وهذه دقيقة أخرى كسابقتها تدل على فضل الشيخ ، وكفاءته العلمية وموهبته الفنية .

وفي باب " حذف الأقوال " نراه يسوق من الشواهد قوله تعالى **﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾** تقديره : يقولون سلام عليكم . ثم أشار الشيخ في هذا الباب إلى لطيفة أدبية تدل على حسن تذوقه للغة القرآن الكريم وفهمه لروحه الأدبية ، ملخصها ، أنه يقدر في كل موضع أحسن تقدير أي ينبغي أن يراعي في تقدير المحذوف كونه مناسباً لما حذف منه حتى تتآخى الألفاظ ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، ويحصل الانسجام التام بينها ، وبين بعضها ، فيقدر في قوله تعالى **﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾** وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق ، ولا يقدر ، ويقال لهم ، لأن " قيل " يناسب " أعيدوا " .

وكذلك يقدر في قوله تعالى **﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ﴾** فيقال لهم ، ولا يقدر ، فقيل لهم ، لتقدم ، تبيض ، وتسود ، ويقدر في قوله تعالى **﴿يوم يسحبون**

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص١٢ .

في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ ويقال لهم ذوقوا مس سقر لمناسبة "يسحبون"[1].

وفي باب " حذف القسم " يذكر من الشواهد قوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم** ﴾ تقديره والله لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ، وقوله ﴿ **والذين آمنوا ، وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين** ﴾ تقديره والله لندخلهم في الصالحين ، ثم أشار المؤلف – رحمه الله – في هذا الباب إلى لطيفة أدبية تدل على حسن تذوقه لأساليب القرآن الكريم ، ملخصها أن ما يحذف من القسم يختلف باختلاف عادة المقسمين فيقدر في قول فرعون ﴿**لاقطعن أيديكم**﴾ فبعزتي لاقطعن أيديكم ، لأنه كان لا يقر بالله فيقسم به ، والذي عهد في عصره قول السحرة : "بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون" [2].

وفي باب " حذف المضاف " يسوق من الشواهد قوله تعالى ﴿ **فما أوجفتم عليه** ﴾ ثم يعلق عليه فيقول : " فما أوجفتم على أخذه ، أو على حيازته أو على اغتنامه ، أو على تحصيله " ثم يشير رحمه الله إلى لطيفة أدبية تدل على رقة ذوقه ، ولطافة حسه ، وصفاء ذهنه ، ملخصها أنه إذا احتمل تقدير المحذوف أكثر من لفظ فينبغي أن يقدر من هذه المحذوفات أخفها وأحسنها ، وأفصحها ، وأشدها موافقة للغرض ، فتقدير " أخذه" في الآية أحسن من تقدير"اغتنامه" لأنه أخصر ، ومن تقدير "حيازته" لثقل التأنيث الذي في حيازته ، وكذلك جميع حذوف القرآن من المفاعيل والموصوفات ، وغيرها لا يقدر إلا أفصحها ، وأشدها موافقة للغرض ، لأن العرب لا يقدرون إلا ما لو لفظوا به لكان أحسن ، وأنسب لذلك الكلام كما يفعلون ذلك في الملفوظ به مثال ذلك قوله تعالى ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس**﴾ قدر أبو علي ، جعل الله نصب الكعبة ، وقدر بعضهم ، جعل الله حرمة الكعبة ، وهو أولى من تقدير أبي علي ، لأن تقدير الحرمة في الهدى ، والقلائد ، والشهر الحرام لا شك في فصاحته ، وتقدير النصب فيها بعيد من الفصاحة [3] ثم أشار كذلك إلى أن المحذوف إذا

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص١٣ .
(٢) المصدر نفسه ص١٤ .
(٣)المصدر نفسه ص٤ .

احتمل أكثر من لفظ ، فينبغي أن يقدر من الألفاظ أخصرها لأن اختصار المحذوفات أحسن من إطالتها ، ولا يقدر ما فيه طول إلا عند الاضطرار إلى الإطالة كقوله تعالى ﴿ **إن الله مبتليكم بنهر** ﴾ تقديره ، إن الله مبتليكم بشرب ماء نهر ، وكقوله تعالى ﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾ تقديره ، فقبضت قبضة من أثر حافر الرسول [١] .

وفي الباب نفسه يسوق من الشواهد قوله تعالى ﴿ **آمنوا بالله** ﴾ ثم يعلق عليه بقوله : "تقديره : آمنوا بوحدانية الله ، ولا يقدر ، آمنوا بوجود الله ، لأن الذين خوطبوا بهذا كانوا مؤمنين بوجوده وأنه خلق السموات ، والأرض ، وسخر الشمس ، والقمر ، وأنزل من السماء المطر ، فيقدر في كل مكان ما يليق به ، فإن كان الخطاب مع المشركين قدرت ، فآمنوا بوحدانية الله ورسوله ، لأن الكلام مع قوم جحدوا الوحدانية ، وإن الكلام مع اليهود كان التقدير ، ولو آمن أهل الكتاب بدين الله ، وإن كان مع النصارى جاز أن يقدر ، آمنوا بدين الله ، وآمنوا بوحدانية الله ، وكذلك في الكفر ، يقدر في كل مكان ما يليق به فيقدر في قوله تعالى ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ كيف تكفرون بقدرة الله على بعثكم ، وقد كنتم أمواتاً فأحياكم ويقدر في قوله تعالى ﴿**ألا إن عادا كفروا ربهم**﴾ ألا إن عاداً كفروا نعم ربهم"[٢]، وهذه إحدى اللطائف الأدبية التي لا يفطن إليها إلا من أوتي حظاً وافراً من الذوق الأدبي ، والقريحة الصافية ، والحس المرهف .

ثم نراه في هذا الباب أيضاً يشير إلى مسألة لا يفطن إليها إلا من أشرقت أنوار الرحمن في قلبه ، ومنحه الله ذوقاً رقيقاً صافياً يدرك ما احتجب خلف الأستار من الأسرار وملخص هذه المسألة : أن تقدير ما ظهر في القرآن أولى في بابه من كل تقدير [٣] .

وهذا جميل من الشيخ رحمه الله إلا أنني كنت أريد منه أن يعبر بالوجوب بدلاً من الأولوية فيقول : إن تقدير ما ظهر في القرآن واجب في بابه ، لأن الأولوية تشعر فقط بالمفاضلة وأن ما

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص٥ .

(٢) المصدر نفسه ص٨ .

(٣) المصدر نفسه ص٩ .

ظهر في القرآن يقدم في التقدير على غيره من كلام البشر ، وأنا أرى أن كلام الله يعلو ، وما يعلى عليه ، وأنه يجب تقديمه ، والاقتصار عليه في التقدير ، فهو الكلام المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وهو الذي وقف أساطين البيان حيارى أمام بلاغته وعجزوا عن الإتيان بأقصر سورة من مثله ، وأن ما عليه صفوة البشر من البلاغة غرفة من بحاره ، وقبس من أنواره ، ثم إن المحذوف في آية إذا ظهر في آية أخرى أصبح من جملة نص الآية ، فيجب الاقتصار عليه في التقدير ، لأن النص القرآني لا يجوز فيه التغيير ، والتبديل ، ولا الرواية بالمعنى ، لأن ألفاظ القرآن مقدسة ﴿ **لا مبدل لكلمات الله** ﴾ وبناء عليه فالمحذوف في آية إذا ظهر في آية أخرى ، وجب أن يقتصر عليه في التقدير ، لا أن يقدم على غيره من كلام البشر ، وتكون له الأولوية فقط كما قرر الشيخ رحمه الله ثم ساق الشيخ أمثلة قرآنية لهذه المسألة ، ووضحها توضيحاً تاماً ، ومن هذه الأمثلة قوله تعالى ﴿ **حتى تأتيهم البينة رسول من الله** ﴾ ثم علق عليه بقوله : تقديره : رسول من عند الله ، لأنه قد ظهر في قوله تعالى ﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله**﴾ وقوله تعالى ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا** ﴾ ثم علق عليه بقوله : تقديره : رحمة من عندنا ، لأنه ظهر في سورة الأنبياء في قوله تعالى ﴿**رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ وقوله تعالى ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ وعلق عليه بقوله : قد جاءكم من عند الله نور وكتاب مبين ، بدليل قوله : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم** ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ **ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾ ثم علق عليه بقوله : تقديره ويخوفونك بالذين يدعون [1] من دونه ، بدليل قوله تعالى ﴿**لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك**﴾ [2] .

ثم بعد أن فرغ من الحديث عن الإيجاز بالحذف قام برحلة في رياض القرآن الكريم جمع فيها ألواناً شتى من المجاز في القرآن ، وشرحها شرحاً وافياً ، وساق لها الجم الكثير من الشواهد القرآنية ، ووضح القول في مجازها ، فتحدث عن المجاز في وصف الفاعل ، والمفعول

---

(١) المحذوف في الآية هو صلة الموصول ، وكذلك الآية التي بعدها .
(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص١٠،٩ .

بالمصدر ، وعن المجاز في الحروف وعن المجاز في الأفعال ، وعن مجاز التضمين ، وعن مجاز اللزوم ، وعن مجاز التشبيه .

وإليك أيها القارئ الكريم نماذج من المجازات التي أوردها في كتابه ، ففي باب "المجاز في وصف الفاعل والمفعول بالمصدر" يورد من الشواهد قوله تعالى ﴿**يؤمنون بالغيب**﴾ ثم يعلق عليه بقوله " أي بالغائب ، فيكون من مجاز المبالغة في الصفة ، أو بذي الغيب فيكون من مجاز الحذف ، وقوله تعالى ﴿**إنه لقول فصل**﴾ ويعلق عليه بقوله : أي بقول فاصل بين الحق والباطل كقولك إنه لرجل عدل أي عادل فيكون من مجاز المبالغة ، في الصفة ، أو "لقول ذو فصل" ، فيكون من مجاز الحذف ، وكونه من مجاز المبالغة أولى لأن المقام يقتضي المبالغة أي لقول هو عين الفصل [1] ويفهم من كلامه في هذا الباب أن المجاز في وصف الفاعل والمفعول بالمصدر تارة يكون للمبالغة ، وتارة أخرى يكون من قبيل مجاز الحذف ، وأن ذلك يتوقف على ملاحظة المقام ، والمعنى المقصود ، فإذا كان المقام يقتضي المبالغة كالمدح والتأكيد فيكون من قبيل مجاز المبالغة في الصفة ، وإلا كان من قبيل مجاز الحذف .

وفي " مجاز التضمين " نراه يعرف التضمين تعريفاً أدبياً سهلاً ميسوراً محبباً إلى النفوس بعيداً عن التعقيدات الفلسفية المنطقية فيقول : " هو أن تضمن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين ، فتعدية تعديته في بعض المواطن ، وتضمن فعلاً معنى فعل لافادة معنى الفعلين ، فتعديه تعديته في بعض المواطن كذلك "[2] وهذا التعريف يشعر بأن فائدة مجاز التضمين هي الاختصار والإيجاز لأن الاسم المضمن يفيد معنى الاسمين ، والفعل المضمن يفيد معنى للفعلين كذلك .

ثم أورد له بعض الشواهد القرآنية وجعل منها قوله تعالى ﴿**كتب عليكم القصاص**﴾ وعلق عليه بقوله : أي فرض عليكم ، ضمن " كتب " معنى " فرض " لإفادة كونه مكتوباً مفروضاً ، والكتابة حادثة والفرض قديم " .

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص١٠ .
(٢)المصدر نفسه ص٥٤ .

كذلك نراه يورد من الشواهد القرآنية في هذا الباب قوله تعالى ﴿**وأخبتوا إلى ربهم**﴾ ثم يعلق عليه بقوله : ضمن " أخبتوا " معنى " أنابوا " لافادة الإخبات والإنابة معاً" .

كذلك نراه يورد من الشواهد القرآنية قوله تعالى ﴿ **يؤمنون بالغيب** ﴾ ويعلق عليه بقوله : " أي يقرون بالغيب لإفادة معنى التصديق بالقلب والإقرار باللسان" [(1)] .

وهكذا يستمر في سرد الشواهد القرآنية لهذا المجاز ، ويتبع هذا السرد بالتعليق والتحليل ، والإيضاح والتبيين .

ونراه في " مجاز التشبيه " يورد من الشواهد قوله تعالى ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ثم يعلق عليه بقوله " شبه الإسلام بالطريق المستقيم لأدائه إلى الجنان ، ورضى الرحمن ، وفي التعبير عن الدين بالصراط ترغيب في اتباعه ، لأن كونه صراطاً مشعر بأدائه إلى رضى الله ، وثوابه ، والدين لا يشعر بذلك " [(2)] وهو في تعليقه على الآية الكريمة يبين فصل المجاز على الحقيقة ، إذ إن في التعبير بالصراط المستقيم عن الدين معنى جميلا ، لا يشعر به لفظ الحقيقة .

ومن الشواهد التي ذكرها في هذا الباب قوله تعالى ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ ثم علق بقوله : "شبه امتناعهم من كل خير بقبض اليد" وأنا أرى أن جعل الآية من قبيل الكناية عن "البخل" أولى من جعلها من قبيل مجاز التشبيه ومن الشواهد التي أوردها أيضاً قوله تعالى ﴿ **ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ ثم علق عليه بقوله : " شبهت موانع الانتفاع بما يقوله ، ويدعوهم إليه بالحجاب المانع من الرؤية ، والسماع " .

ومن الشواهد التي أوردها في هذا الباب قوله تعالى ﴿**وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها**﴾ ثم علق عليه بقوله : " أي تدافعتم في قتلها تجوز بالتدافع عن الاختلاف لأن المدعى عليه يدفع عن نفسه ما نسب إليه من القتل ، والمدعي يدفع القتل عن نفسه أيضاً فشبّه دفع المعاني بدفع الإجرام وأنا أرى أن الآية من قبيل المجاز المرسل فقد أطلق المسبب وهو "ادارأتم" بمعنى

---

(1) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص٣٤٨ .
(2) المصدر نفسه ص٦٤ .

"تدافعتم" وأراد سببه وهو " الاختلاف " لأن الاختـلاف سـبب في "التدافـع"وفيهـا إلى جـانب ذلك إيجاز بالحذف في قوله : " فيها " أي في قتلها .

ومن الشواهد التي أوردها في هذا الباب قوله تعالى ﴿ولما يدخـل الإيمـان في قلوبكـم﴾ ثـم علق عليه بقوله : " الدخول الحقيقي انتقال جرم من خارج الشيء إلى داخلـه ، ولا يتصـور في الإيمان انتقال من خارج القلوب إلى داخلها ، ولا خروج منها إلى ظاهرها ، بل شبه حصوله في القلوب بعد أن لم يكن فيها بجرم دخـل إلى حيز بعد أن لـم يكـن فيـه ، وكذلـك شـبه خلـو القلوب منها بخلو الأحياز من أجرام كانت فيها ، ثم فارقتها " .

وأن من يُمْعِنُ النظر في شـواهده التي سـاقها في مجـاز التشـبيه يـرى أن بعضهـا مـن قبيـل الاستعارة ، وبعضها من قبيل التشبيه ، وبعضهـا مـن قبيـل الكناية ، وبعضهـا مـن قبيـل المجـاز المرسل ، ولعله يريد من مجاز التشبيه كل هذه الأمور ، ولولا خوفي من الإطالة التي تبعدني عـن موضوع البحث لقمت بتحقيق المسألة .

كذلك ساق شـواهد كثيرة لمجاز اللزوم ، والمجاز في الحروف والأفعال ، وعلـق عليهـا ، ولكن هذه الشواهد قد نقلها من كتب التفسير ، وليس لـه فيهـا مجهـود يذكـر لـذا رأيـت مـن المستحسن ألا أذكرها .

ثم بعد أن رجع الشيخ من رحلته التي قام بها في ريـاض القـرآن الكريـم باحثـاً ومنقبـاً عـن أزهار المجاز ورياضه اتجه بحسه المرهف ، وذوقه الرقيق إلى أسلوب القرآن الكريم ليكشـف لنـا عن جمال ألفاظه ، ودقة تراكيبه ، وعمـق معانيـه ، فقـرر أن نظـم القـرآن لا يدانيـه نظـم ، وأن أسلوبه أسلوب فريد ، وأنه فوق طاقة البشر ، ثم ساق أمثلة برهن بها على جمال ألفاظ القـرآن موازناً بينها ، وبين غيرها ، ولقد أبدع في ذلك ، وأجـاد ، وأحسن ، وأتى بما لـم يـأت بـه غيره ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على رسـوخ قـدم هـذا الشيخ الجليـل في فـن النقـد ، ودرايته التامة ، وخبرته الواسعة بأساليب لغة القـرآن الكريـم ، ثـم إن ممـا يلفـت النظـر أن هـذه الموازنات التي قام بها ، ودلـل بهـا على بلـوغ القـرآن الدرجـة القصـوى في جمـال ألفاظـه ،

وحسن تراكيبه ، وجودة نظمه لم يتعرض لها أحد من السابقين من أئمة البيان العربي من مفسرين وبلغاء ، ومن هذه الأمثلة قوله تعالى ﴿ **وجنى الجنتين دان** ﴾ ثم يعلق على هذا القول الكريم بقوله : لو قال مكانه " وثمر الجنتين قريب " لم يكن كقوله " **وجنى الجنتين دان** " من جهة الجناس بين الجنا والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل" ومن الأمثلة التي ساقها أيضاً قوله تعالى ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه**﴾ ثم يعلق عليه بقوله : " لو قال : " ولو أعيدوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه " لم يكن كقوله :" ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه " لوجهين : أحدهما أن " ردوا " موافق لقوله : " يا ليتنا نرد " الوجه الثاني لو قال : " ولو أعيدوا " لسمج من جهة أن اللفظ المتحد كالطعام المتحد ، واللفظ المختلف مع اتحاد المعنى كالطعام المختلف ألذ من ذوق الطعام المؤتلف " [1] وهذا التعليق يدل على اعتماد الشيخ في دراسته لبلاغة القرآن على ذوقه وحسه ، إذ يتخيل الألفاظ المختلفة أطعمة مختلفة يتلذذ الإنسان بذوقها ، ويتمتع بحلاوتها ، ويتخيل اللفظ المتحد طعاماً متحداً يمله الإنسان ويسأمه ، ومن أمثلته التي ساقها قوله تعالى ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون** ﴾ ثم يعلق عليه بقوله : قوله " تتلو " أحسن من قوله : " تقرأ " لثقل " تقرأ " بالهمزة ، وقوله : " لاريب " أحسن من قوله : " لا شك فيه " لثقل الإدغام في الشك ، واجتماع المثلين ، ولهذا كثر ذكر الريب في القرآن ، ومن شواهده التي ساقها قوله "ولا تهنوا" ثم علق عليه بقوله : "ولا تهنوا" أحسن من قوله : "ولا تضعفوا" لخفة " تهنوا " وثقل " تضعفوا " ومن شواهده قوله تعالى ﴿**وهن العظم مني**﴾ ثم علق عليه بقوله " هذا التركيب أفصح من "ضعف العظم مني" لأن الفتحة في "وهن" أخف من الضمة في "ضعف" ومن شواهده قوله تعالى ﴿**آثرك الله علينا**﴾ ثم علق عليه بقوله : " هذا التركيب أحسن من " فضلك الله علينا " لخفة " آثر " وثقل "فضل" ومن شواهده قوله تعالى ﴿ **هذا خلق الله** ﴾ ثم علق عليه بقوله "خلق" أخف من "مخلوق" لأن "الخلق" ثلاثة أحرف و"المخلوق" خمسة أحرف .

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص٢٠٥ .

ولقد كشف الشيخ رحمه الله بهذا التعليق عن لطيفة أدبية ، ودقيقة فنية ، غابت عن أذهان كثير من علماء البلاغة ، فهم يرون أن التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل ، والمفعول يفيد المبالغة ، وغفلوا عما كشفه الشيخ وهو الخفة التي في المصدر لقلة حروفه ، ولقد صرح بهذا فقال : "ومن ذلك التجوز بالمصدر عن المفعول لأن التلفظ بالمصدر أخف من التلفظ بالمفعول ، والتجوز بالمصدر عن اسم الفاعل أخف من ذكر الفاعل كقولك مررت برجل عدل فإنه أخف من عادل ، ومن هنا كان قوله تعالى ﴿يؤمنون بالغيب﴾ أخف من يؤمنون بالغائب"[1].

هذا هو رأي عز الدين بن عبد السلام في إعجاز القرآن ، وملخصه كما ذكرت آنفاً أنه يرى أن القرآن معجز بإيجاز ، ومجازه ، وجمال ألفاظه ، وحسن تراكيبه ، وعمق معانيه ، وبديع نظمه ، وقد عرضه بأسلوب جميل ، جمع فيه بين الروعة الأدبية ، والدقة العلمية ، فطاف حول رياض القرآن مستنشقاً عبيرها الذي عطر الأكوان ، وغاص في بحار الفرقان مستخرجاً لآلئه ، وجواهره الحسان ، عارضاً إياها أمام أعين الأنام ، كي يتذوقوا جمالها الفتان ، ويعرفوا كيف كان القرآن معجزاً لأساطين البيان ؟ وليس هذا بكثير على عز الدين ابن عبد السلام ، فهو الزاهد التقي الورع ، الذي جاهد نفسه ، ودخل معها في صراع مرير ، طويل ، حتى كبح جماحها ، وسيطر عليها ، فصفت روحه واشرقت أنوار الرحمن في قلبه ، وأضاءت الحكمة جوانب عقله ، وخطبت عرائس البيان وده ، فنطق لسانه بالسحر الحلال ، وجاد فكره بنفائس المعاني ، وجواهر البيان ، إلا أنني آخذ عليه أنه أفرط في المجاز ، وجعله من وجوه الإعجاز ، مع أنه ليس محل اتفاق بين العلماء ، فمنهم من أنكر وجوده في القرآن ، ومنهم من أجازه ، وحتى من أجازه منهم لم يجزه على إطلاقه ، وما دام المجاز في القرآن ليس محل اتفاق بين علماء البيان ، فلا يصح جعله من وجوه الإعجاز .

وهو متأثر في دراسته للمجاز في القرآن بالشريف الرضي ، ومتأثر في دراسته للإيجاز بالرماني والفرق بينهما أن دراسة الرماني للإيجاز في القرآن الكريم كانت دراسة فنية تعتمد على

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص٢٠٥ .

الذوق والإحساس ، أما دراسة العز بن عبد السلام فكانت أقرب إلى الدراسة العلمية التي تعتمد على العقل وتميل إلى الضبط ، ومتأثر في دراسته لأسلوب القرآن ، والموازنة بينه ، وبين غيره بالشيخ عبد القاهر الجرجاني فكلاهما اعتمد في هذه الدراسة على ذوقه ، وحسه إلا أن عبد القاهر توسع في هذه الدراسة أكثر من العز بن عبد السلام .

وبعز الدين بن عبد السلام نأتي إلى خاتمة مشاهير العلماء الذين تكلموا عن الإعجاز في القرآن الكريم ، وقد جاء من بعده علماء ، تكلموا في هذه الناحية ، لكن جهودهم ، قد اقتصرت على نقل وجمع آراء السابقين ، ولم يكن لهم جديد في هذه الناحية يستحق الدراسة والتسجيل ومن هؤلاء "الزمكاني" المتوفي سنة ٧٢٧هـ و " الزركشي " صاحب كتاب " البرهان في علوم القرآن" والمتوفي سنة ٧٤٥هـ ، و"ابن قيم الجوزية" صاحب كتاب " الفوائد " والمتوفي سنة٧٥١هـ و "السيوطي" صاحب كتاب " الإتقان في علوم القرآن " والمتوفي سنة٩١١هـ .

أما في عصرنا هذا فأحسب أن خير من كتب في هذه الناحية المرحوم "مصطفى صادق الرافعي" صاحب كتاب " إعجاز القرآن " والمرحوم " سيد قطب " ومن خير آثاره في هذا الموضوع " التصوير الفني في القرآن " و " مشاهد يوم القيامة في القرآن " وتفسيره " في ظلال القرآن " .

الفصل الثالث

مظاهر الإعجاز

في نظم القرآن

إن للإعجاز في النظم القرآني مظاهر كثيرة سنتحدث عنها في هذا الفصل من هذا البحث إن شاء الله ولكن لابد أن نذكر قبل ذلك مقدمة نوضح فيها مصدر هذه المظاهر كلها وأساس الإعجاز القرآني في جملته إذ إن لهذه المظاهر التي سنتحدث عنها جذوراً كامنة في هذا المصدر ومن أجل هذا لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إليه .

بيان ذلك أن مرد البلاغة الكلامية إلى الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى ومدى القدرة على تسخير الأول لتجلية الثاني وعرضه في المظهر المطلوب .

ومن أهم أسباب ذلك أن يتسارع إلى الذهن عامة ألفاظ اللغة ومترادفاتها بحيث يتكامل تصورها في جانب من الذهن كما يتكامل تصور المعنى في الجانب الآخر منه ، فبمقدار ما يتم من التطابق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن واللفظ الدال عليه والمصور له ، يوصف الكلام بالبلاغة والبيان ، وتحقيق هذا الأمر في مظهره الكامل ، شيء عسير بل محال لا يكاد يصل إليه الطوق البشري وذلك لسببين :

أولهما : أن المعاني والتصورات أسرع إلى الذهن دائماً من الألفاظ وقوالب التعبير ، فالألفاظ مهما جاءت منمقة ، فإنها تعجز في عامة الأحوال عن اجتثاث حقيقة إحساسات النفس وما يختلج فيها .

واللغة مهما كان نوعها لا تغطي إلا جزءاً يسيراً من المشاعر والمعاني .

فالألم أنواع من الشعور والإحساس ، وليس له إلا كلمة واحدة في اللغة وطعم الحلاوة أنواع في الشعور والذوق ، وليس يعبر عنه إلابكلمة واحدة هي الحلاوة ، وكذلك الألوان والروائح وغيرها ، لا تملك اللغة إلا التعبير عن سطحها القريب ، فإذا ما أردت أن تدقق ، تخلفت اللغة عنك ، وبقيت مع مشاعرك الصامتة .

ثانيهما : مهما كان المتكلم أو الكاتب لغوياً بليغاً ، ومهما كان يحفظ في ذهنه من متن اللغة وألفاظها ووجوه تركيبها ، فإنه إنما يقف من هذه اللغة أمام بحر عظيم من الكلمات والتعابير الحقيقية

والمجازية المختلفة ، وهيهات أن تنتصب هذه المعايير كلها مكشوفة واضحة أمام خياله كما تنتصب مضارب الأحرف من الآلة الكاتبة أمام ضاربها وإنما هو – عند إرادة التعبير – إنما يلقي حبال تفكيره وذهنه إلى هذا البحر العظيم ليلتقط منه ما تسارع إليه وسهل على لسانه أو اعتاد عليه قلمه وفكره ، وفي اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينحله لغرضه ، ويقوم بعضه مقام بعض في التعبير العام عن مقصودة .

بيد أن هذه المترادفات إنما تحسب مترادفات ، إذا ما أريد منها الدلالة الإجمالية على المعنى وهي ما يقتنع به العامة من المتكلمين ممن لا يطمعون بأكثر من ايصال خلاصة إحساساتهم ومجمل أفكارهم إلى الآخرين ، أما عند سبر أغوار هذه الكلمات واستخراج ما بينها من الخصائص والفروق ، فهي ليست عندئذ من المترادف في شيء ، وإنما لكل منها دلالته الخاصة وإشارته المتميزة وإيماؤه الذي لا يشترك فيه غيره ، وتصويره الذي يتفرد به عن نظائره ، وإنما تتضح هذه الفروق ، وتتجلى للعيان عندما يريد الكاتب أو المتكلم أن ينهي إلى السامع صورة لدقائق إحساسه أو فكره وتأملاته ، فتراه يمايز بين هذه المترادفات ويتأمل في جرس كل منها ووقعه ودلالته ، وقد يفسد الكلام كله في حسابه بتبديل كلمة منه بأخرى أو لدى أي تحوير في نسقه وسبكه من تقديم أو تأخير [١] .

واسمع ما يقوله الباقلاني في هذا الصدد :

" وهو – أي أمر اختيار الكلمة – أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع "الصبح " في موضع " الفجر" يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها في مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها ، وتجد الأخرى – لو وضعت موضعها – في محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار [٢] .

---

(١) من روائع القرآن للبوطي ص١٣٧–١٣٨ .
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص١٨٤ .

فمن هنا تضيق السبيل على من ينشد الدقة في التعبير والصدق في تصوير الإحساس والمعاني إذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه لما يختص به كل منها من وظيفة ومكان ، فتجده يقع في إحدى النقائص التي لا مخلص منها ، وإمَّا أن يجنح إلى اختصار مفسد مخل ، وإمَّا أن يقع في كلامه على ألفاظ وتعابير تفسد عليه تصويره ، وتشوش على السامع مقصوده ، وإذا اتسعت أمامه السبيل في معالجة بعض المعاني والتعبير عنها ، ضاقت عليه السبيل عن معان أخرى .

وما كاتب من الكتاب أو بليغ من البلغاء في القديم أو الحديث إلا وفيه هذه النقائص أو فيه واحدة منها ، وذلك كله ليس إلا مظهراً للضعف البشري الناتج عما يتمتع به من طاقة محدودة .

فمصدر الإعجاز القرآني بمظاهره المختلفة لا يمت إلى هذا الضعف البشري بأي سبب .

اقرأ ما شئت من سوره وآياته ، فستجد أن كلاً من جانبي اللفظ والمعنى فيه متوافقان متطابقان أتم ما يكون الوفاق والتطابق ، لا تشعر أن حرفاً واحداً يفيض في جانب اللفظ عن المعنى ، ولا تجد أي جانب في المعنى – مهما دق ولطف – قد قصر عن الدلالة عليه اللفظ والتعبير .

وإنك لتتأمل فتجد أن اللفظ فيه يدل على المعنى ، والمعنى بدوره يدل على اللفظ فكل منهما مرآة للآخر .

وتأمل ، لتفهم أيهما التابع وأيهما المتبوع ؟ هل اللفظ ظل للمعنى ، يحكيه ويجسده ويحده ، أو المعنى ظل للفظ يحييه ويحركه ويجمله ؟ فلا تفهم إلا أنهما متمازجان يتعاوران الدلالة على أخص وأدق ما في كل منهما من الملامح والسمات ، وكأنهما في هذا الإبداع الإلهي العجيب متوالدان من بعضهما ، وكل منهما ميزان دقيق للآخر ، لا يتراءى بينهما أي أثر من آثار التفاوت والاختلاف .

فإن كنت في شك مما أقول ، وأردت أن تقف على الميزان والدليل ، فافتح كتاب الله ، وخذ منه أي آية من آياته ، ثم حاول مستعيناً بكل مالديك من كتب اللغة وقواميسها ، وبكل من تعرف من أرباب البلاغة وعلماء العربية والبيان أن تستبدل بأي كلمة فيها كلمة أخرى تدل على نفس المعنى ، فإن استطعت أن تأتي بكلمة أدل على المعنى المطلوب ، وأتم في إشراقها البياني ، أو هي

مثلها تقع موقعها لا ترتفع عليها ولا تنخفض عنها ، فاعلم حينئذ أن كل ما قد قاله العلماء عن إعجاز القرآن وبلاغته لغو من القول لا يستند إلى جوهر من الحق ، أما إن رأيت أن أي كلمة أخرى لا تفي بالمعنى والجرس والتناسق اللفظي كما تفي به الكلمة القرآنية ، وأن أي تغيير أو تبديل في الجملة القرآنية يزيل منها وجها رائعاً ، ويضع لها وجها آخر قاتماً أو ضعيفاً أو متنافراً ، فاعلم أن ذلك هو الدليل الذي لا يماري فيه على أن هذا الكتاب ليس مما يضعه البشر أو يطيقونه [1] . وخذ مثلاً قول الله عز وجل وهو يصف باهر قدرته وحكمته في خلق الكون وتنظيمه :

﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾[2].

وابحث عن أي كلمة أخرى تقوم مقام " فالق " تؤدي معناها وتقوم مقامها في تصوير المراد وتجسيم الفكرة ، وابحث عن أي كلمة أخرى تضعها موضع " الإصباح " في دلالتها على الحركة والانبثاق ، وفي بث حقيقة المعنى المطلوب ، ثم فتش في اللغة كلها عن كلمة تضعها في مكان " سكناً " فيها هدوءها ، ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة وفيها ما تبثه من الصورة في الخيال والنفس ، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة " حسبانا " .

ابحث عن كل ذلك ، وقلب الآية على ما تختاره وتراه من الوجوه ، فستجد أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي لها بألفاظ مثلها أو خير منها ، ومهما غيرت في الآية أفسدت من بهائها ، ونقصت من روعتها وإشراقها ، والقرآن كله مثال على ذلك ، فخذ ما شئت منه ، وقدر فيه ما قلت لك تجد أن كل كلمة منه إنما تستقر في مكانها لا يطولها أي تغيير أو تحوير ، هذا في حين أنك لو تناولت أي قطعة بلاغية أخرى ، أياً كان صاحبها ، وعرضت ألفاظها وتركيبها للتبديل والتحسين فإنك واجدٌ إلى ذلك سبيلاً عريضة فكل قطعة بلاغية مهما تناهت في الجودة قابلة للتبديل والتحسين ، خاضعة للبحث والنقد ، فهذا هو أساس الإعجاز القرآني ، وهو المصدر الأول لمختلف مظاهر الإعجاز ، التي سنتحدث عنها ، وإليه مرد كل ما يبحث فيه العلماء من خصائص أسلوبه وميزاته البلاغية [3] .

وإليك الآن بيان هذه المظاهر .

---

(١) من روائع القرآن للبوطي ص١٣٩-١٤٠ .

(٢) الأنعام : ٩٦ .

(٣) من روائع القرآن للبوطي ص١٤٠-١٤١ ، وإعجاز القرآن للرافعي ص٢٨٣ وما بعدها .

المظهر الأول

الخصائص المتعلقة بأسلوبه

ظهر لنا في الفصل السابق الذي تحدثنا فيه عن " الذين كتبوا في الإعجاز " أن آراء هؤلاء العلماء الأجلاء تدور حول فكرة واحدة هي أن القرآن الكريم معجز بأسلوبه الفريد ، ونظمه البديع الذي هو فوق طاقة البشر ، إذن فهذا الأسلوب هو "مادة الإعجاز" وإذا كان كذلك ، فلابد للباحث في هذا المجال من نظرة في أسلوب القرآن الكريم يتعرف بها على خصائص هذا الأسلوب ومميزاته ، وإليك هذه الخصائص :

الخاصة الأولى : أن هذا الأسلوب يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ، ويقوم في طريقته التعبيرية على أسس مباين للمألوف من طرائقهم ، بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظماً أو نثراً ، وللنظم أعاريض ، وأوزان محددة معروفة ، وللنثر طرائق من السجع ، والإرسال وغيرهما مبينة ومعروفة ، والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيدة ، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه ، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك ، ولكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته ، بل يسري في صياغته ، وتآلف كلماته ، وتجد في تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً بين الرخو منها والشديد ، والمجهور ، والمهموس ، والممدود ، والمقطوع ، بحيث يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارئ العربي كيفما قرأ ، طالما كانت قراءته صحيحة ، ومهما طفت بنظرك في جوانب كتاب الله تعالى ومختلف صوره وجدته مطبوعاً على هذا النسق العجيب فمن أجل ذلك تحير العرب في أمره ، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه ، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه فكان أن انتهى الكافرون منهم إلى أنه السحر ، وَاسْتَيْقَنَ المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين .

وإليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثله التي توضح هذه الحقيقة ، وتجليها ،

قال تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ❁ تنزيل من الرحمن الرحيم ❁ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ❁ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ❁ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنّنا عاملون ❁ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليَّ أنّما إلهكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ❁ ﴾[1] .

وهذه الآيات بتأليفها العجيب ، ونظمها البديع حينما سمعها عتبة بن ربيعة وكان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه ، ومشاعره ، وطارت بلبه ، ووقف أمامها في ذهول ، وحيرة، ثم عبر عن حيرته وذهوله بقوله : " والله لقد سمعت من محمد قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. والله ليكونن لقوله الذي سمعت [2] نبأ عظيم " .

وإليك سورة من سوره القصار تتجلى فيها هذه الحقيقة أمام العيان ، من ينكرها فكأنما ينكر الشمس في وضح النهار .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، والشمس وضحاها ❁ والقمر إذا تلاها ❁ والنهار إذا جلّاها ❁ والليل إذا يغشاها ❁ والسماء وما بناها ❁ والأرض وما طحاها ❁ ونفس وما سواها ❁ فألهمها فجورها وتقواها ❁ قد أفلح من زكاها ❁ وقد خاب من دساها ❁ كذبت ثمود بطغواها ❁ إذ انبعث أشقاها ❁ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ❁ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ❁ ولا يخاف عقباها ❁ ﴾[3] .

تأمل هذه الآيات ، وكلماتها وكيف صيغت هذه الصياغة العجيبة ؟ وكيف تآلفت كلماتها وتعانقت جملها ؟ وتأمل هذا النغم الموسيقي العذب الذي ينبع من هذا التآلف البديع ، إنه إذا لامس أوتار القلوب : اهتزت له العواطف ، وتحركت له المشاعر ، وأسال الدموع من العيون ، وخرت لعظمته جباه أساطين البيان ، أشهد بالله أنه النظم الإلهي الذي لا يقدر على مثله مخلوق .

---

(١) سورة فصلت : ١-٦ .
(٢) ارجع إلى القصة تجدها مفصلة في الفصل الأول من هذا البحث " الإعجاز – نشأته – تطوره – وجوهه " .
(٣) سورة الشمس .

وهذه الحقيقة توجد في سائر كتاب الله لا تتخلف في سورة من سوره ولا في آية من آياته ، ومن أجل ذلك عجز أساطين البيان عن الإتيان بأقصر سورة من مثله .

وفي هذا يقول الرافعي رحمه الله : " وذلك أمر متحقق بعد في القرآن الكريم : يقرأ الإنسان طائفة من آياته ، فلا يلبث أن يعرف لها صبغة من الحس ترافد ما بعدها وتمده ، فلا تزال هذه الصفة في لسانه ، ولو استوعب القرآن كله ، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها ، أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هي فيه ، أو دفعتها عن ماء هي إليه : ولا يرى ذلك كله إلا سواء وغاية في الروح والنظم والصفة الحسية ، لا يغتمض في هذا إلا كاذب على دخلة ونية ، ولا يهجن منه إلا أحمق على جهل وغرارة ، ولا يمتري فيه إلا عامي ، أو أعجمي ، وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون " [١] .

الخاصة الثانية : هي أن التعبير القرآني يظل جارياً على نسق واحد من السمو في جمال اللفظ ، وعمق المعنى ودقة التركيب ورقة الصياغة وروعة التعبير ، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد ، وتلك حقيقة شاقة ، بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى فحول علماء العربية والبيان .

وبيان ذلك أن المعنى الذي يراد عرضه ، كلما كان أكثر عموماً وأغنى أمثلة وخصائص كان التعبير عنه أيسر ، وكانت الألفاظ إليه أسرع ، وكلما ضاق المعنى وتحدد ، ودق وتعمق كان التعبير عنه أشق ، وكانت الألفاظ من حوله أقل .

ولذا كان أكثر الميادين الفكرية التي يتسابق فيها أرباب الفصاحة والبيان هي ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء ، وكانت أقل هذه الميادين اهتماماً منهم ، وحركة بهم ميادين الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم ، وذلك هو السر في أنك قلما تجد الشعر يقتحم شيئاً من هذه الميادين الخالية الأخرى .

ومهما رأيت بليغاً كامل البلاغة والبيان ، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص٢٧٤-٢٧٥ ط القاهرة سنة ١٩٦١م .

والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه ، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها ، فربما جاء بالغاية من البراعة في معنى من المعاني ، فإذا انصرف إلى غيره انخذل عن تلك الغاية ، ووقف دونها ، غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب الله تعالى ، فأنت تقرأ آيات منه في الوصف ، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة ، وتقرأ بعد ذلك مقطعاً في التشريع وأحكام الحلال والحرام ، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب من الإشراق والبيان، وتنظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها ، ودونك فاقرأ ماشئت من هذا الكتاب المبين متنقلاً بين مختلف معانيه ، وموضوعاته للتأكد من صدق ما أقول ، ولتلمس برهانه عن تجربة ونظر [1] .

يقول الرافعي رحمه الله : فأنت مادمت في القرآن حتى تفرغ منه لا ترى غير صورة واحدة من الكمال ، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام[2] .

ويقول في معرض حديثه عن " روح التركيب " في أسلوب القرآن : " وهذه الروح لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن ، وبها انفرد نظمه ، وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو ، كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرَج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب ، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم ، وضرب الأمثال إلى نحوها مما يدور عليه .

ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني ، ومواقعها في النفوس ، وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازاً ، كما تعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها على أنهم قد رفهوا عن أنفسهم وكفوها أكبر المؤنة فلا يألون أن

---

(١) من روائع القرآن للبوطي ص١١٢-١١٣ .

(٢) إعجاز القرآن ص٢٧٤ وتاريخ آداب العرب للرافعي جـ٢ص٢٤١ .

يتوخوا بكلامهم إلى أغراض ومعان يعذب فيها الكلام ويتسق القول وتحسن الصنعة مما يكون أكبر حسنه في مادته اللغوية ، وذلك شائع مستفيض في مأثور الكلام عنهم ، ثم هم مع هذا يستوفون المعنى الواحد على وجهه ، فإذا تحولوا إلى غيره وأفضوا بالكلام إلى سواه رأيت من اقتضابهم في الأسلوب ومن التناكر في وضع المعنى إلى المعنى مايشبه في اثنين متقابلين من الناس منظر قفا إلى وجه.

وعلى أننا لم نعرف بليغاً من البلغاء تعاطى الكلام في باب الشرع وتقدير النظر ، وتبيين الأحكام ونصب الأدلة وإقامة الأصول والاحتجاج لها والرد على خلافها إلا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه في غير هذه الأبواب ، وأنت قد تصيب له في غيرها اللفظ الحر والأسلوب الرائع والصنعة المحكمة والبيان العجيب ، والمعرض الحسن فإذا صرت إلى ضروب من تلك المعان ، وقعت ثمة على شيء كثير من اللفظ المستكره ، والمعنى المستغلق ، والسياق المضطرب ، والأسلوب المتهافت والعبارات المبتذلة ، وعلى النشاط متخاذلاً ، والعرى محلولة ، والوثيقة واهنة، وتبينت كلاماً لا تطمئن إليه في أكثر جهاته حتى لتعجب أن صاحبه وصاحب ذلك الكلام رجل واحد " [1] .

الخاصة الثالثة : أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم .

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول ، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون في المدارك ، والثقافة ، فستجد أن الآية تعطي كلاً منهم من معناها بقدر ما يفهم ، وأن كلاً منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه .

ولسنا نقصد أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين ، بل هو معنى واحد على كل حال ، ولكن له سطحاً وعمقاً وجذوراً يتضمنها جميعاً أسلوب الآية ، فالعامي من الناس يفهم منه السطح القريب ، والمثقف منهم يفهم مدى معيناً من عمقه أيضاً ، والباحث المتخصص يفهم منها جذور المعنى كله.

---

(١) إعجاز القرآن ص٢٧٩-٢٨٠ وتاريخ آداب العرب للرافعي جـ٢ ص٢٤٥-٢٤٦ .

وخذ إن شئت آية أخرى من كتاب الله مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن ، ثم ابحث عن معناها في مختلف العصور ، فإنك تجد الصدر الأول من المسلمين يفهمون منها المعنى المراد كما هو في طورهم وعصرهم ، وتجد من بعدهم يفهمون معناها كما تطور في زمانهم ، على أن كلا الفهمين من المدلولات القريبة للآية ، وليس من قبيل التكلف أو تحميل اللفظ مالا يحمل ، ولكن الفهم الثاني كان مطوياً عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم إليه إذ ذاك .

وفي القرآن الكثير من هذا وذاك فلنعرض أمثله منه :

من القبيل الأول قوله تعالى ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** ﴾[1] فهذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم ، ولها عمق يصل إليه المتأملون والعلماء ، ولها جذور بعيدة يفهمها الباحثون والمتخصصون ، والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى ، فتعطي كلاً حسب طاقته وفهمه .

فالعامي من العرب يفهم منها أن كلاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض ، وإنما غاير في التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ ، وهو معنى صحيح تدل عليه الآية ، والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجاً ، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه ، وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة ، أما الباحث المتخصص في شئون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج بالنسبه له ، وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية بلغتها وصياغتها ، فأنت تقول : غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج في وسطها ، ولا تقول قبس منير ، إذ النور ينبعث من حقيقته وداخله ، بل تقول قبس مضيء .

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة ، ولكنها - بأسلوبها العجيب - لا تخاطب الناس إلا بما يدركونه منها كلاً حسب استعداده وطاقة فكره ، وبذلك تكون الآية خطاباً مفيداً لأضراب الناس كلهم .

---

(١) الفرقان : ٦١ .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾[1] يقرأ هذه الآية العربي الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراه منها ، وهو الامتداد والانبساط ، فيفهم من قوله "دحاها" معنى الانبساط والامتداد ، وهو فهم صحيح تدل عليه الكلمة بمعناها اللغوي القريب ، ثم يقرأها عالم الفلك ، أو المثقف العادي في هذا العصر ، فيفهم من قوله "دحاها" معنى الاستدارة والتكوير ، وهو أيضاً فهم صحيح للكلمة ، إذ هي تحمل في آن واحد كلاً من معنى الاستدارة والانبساط ، وهو أدق ما توصف به الأرض ، ولقد استعملت هذه الكلمة بكلا معنييها في هذه الأبيات لابن الرومي :

إن أنس لم أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة   في صفحة الماء يلقي فيه بالحجر[2]

ومن القبيل الثاني قوله تعالى ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون**﴾[3].

لقد كان يقرأ هذه الآية أسلافنا ، فلا يعنيهم من فهمها إلا قوله : والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، إذ كان ذلك القدر هو المنطبق على واقع حياتهم فيما تقصد إليه الآية من الحديث عن وسائل ركوب الإنسان ، وما في ذلك من نعمة الله عليه ، فإذا قرأوا الجملة التي تليها وهي ﴿**ويخلق مالا تعلمون**﴾ تاهوا بين تأويل وتفسيرات مختلفة ، ويقرأها إنسان هذا العصر فلا يشك في أن المراد بها هذه الوسائل الحديثة الأخرى التي أضيفت إلى الوسائل السابقة ، وهكذا نجد الآية

---

(١) النازعات : ٣٠-٣١ .

(٢) تشترك مادة داح ودحى في الدلالة على الاتساع والعظم والانبساط والاستدارة . قال في شرح القاموس : واندداح بطنه : عظم واسترسل كاندداح واندحى ودحى ، وبطن مندداح : خارج مدور . وذكر في اللسان نحو ذلك ويشبه أن تكون الكلمتان في أصلهما من مادة واحدة .

(٣) النحل : ٨ .

خطاباً لأهل العصور المتتالية كلها ، وليست خاصة بقوم دون قوم أو جيل دون جيل [1] .

وهذه الخاصة تضيف إلى إعجازه البلاغي المتمثل في نظمه البديع ، وتركيبه العجيب إعجازاً آخر يتمثل في عمق معانيه وتطورها مع الزمن ، وسبقها للعقل الإنساني ، واستيعابها للنظريات العلمية والاختراعات الحديثة مما يدل على أنه ليس من وضع البشر ، وإنما هو تنزيل من رب العالمين .

يقول الرافعي رحمه الله " فإذا ثبت للقرآن المجيد سبقه ما تتوهمه زمناً وتقدمه حدوداً من آخر حدود العقل الإنساني ، على حين أنه أنزل في حدود غيرها بعيدة ، ضعيفة لا علم فيها ، ولا آلات علم ، فحسبك بذلك وحده برهانا على أن هذا الكتاب جملة من الأزل تحولت في معنى ومنطق ، وجاءت لغرض وغاية ولامست الناس لتكون فيهم سبباً لرسوخ الإيمان ، ثم نظاماً للإيمان نفسه ، ومتى رسخ الإيمان ، فقد رسخ العلم كله في النفس الإنسانية ، وهذا عندنا من بعض السر فيما جاء في الكتاب الكريم من آيات السموات والأرض والنظر والاستدلال ، ومن طرق التعبير ، التفسي بالأمثال والقصص ونحوها [2] .

ويقول في موضع آخر : " ثم إن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليلاً على إعجاز آخر فهو بذلك يومئ إلى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل .

وأن الإنسانية ذاهبة في أرقى عصورها إلى هذا المذهب .. فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك في الزمن بأربعة عشر قرناً شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة [3] .

ولولا أن هذه المعجزات العلمية بعيدة عن بحثي لذكرت الكثير منها ، ومن يريد الاطلاع عليها فعليه بكتاب : " الإسلام والطب الحديث " للدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا ، وكتاب : " التبيان في علوم القرآن " للصابوني ففي هذين الكتابين كثير من المعجزات العلمية في القرآن الكريم .

---

(١) من روائع القرآن للبوطي ص١١٤-١١٦ .
(٢) تاريخ آداب العرب ص١٣٠ جـ٢ .
(٣) المرجع السابق ص١٣١ جـ٢ .

الخاصة الرابعة : وهي ظاهرة التكرار ..

وفي القرآن من هذه الظاهرة نوعان :

أحدهما : تكرار بعض الألفاظِ أو الجمل .

وثانيهما : تكرار بعض المعاني كالأقاصيص ، والأخبار .

فالنوع الأول : يأتي على وجه التوكيد ، ثم ينطوي بعد ذلك على نكت بلاغية ، كالتهويل ، والإنذار ، والتجسيم ، والتصوير ، وللتكرار أثر بالغ في تحقيق هذه الأغراض البلاغية في الكلام ، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ **الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر** ﴾ وقوله تعالى ﴿**إنه فكر ، وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر**﴾ وقوله تعالى ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ، وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾ ولا يَتّسعُ هذا المقام لسرد ما في القرآن من هذا التكرار فارجع إليه إن شئت في مظانه وأماكنه [1] .

والنوع الثاني : وهو تكرار بعض القصص والأخبار يأتي لتحقيق غرضين هامين :

الأول : إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها ، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب ، ولقد أشار القرآن إلى هذا الغرض بقوله ﴿**ولقد صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا**﴾[2] .

قال الزركشي " وحقيقته – أي حقيقة التصريف – إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به " [3] .

الثاني : إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة ، وبأساليب مختلفة تفصيلاً

---

(١) انظر في ذلك مشكل القرآن لابن قتيبة ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، والبرهان للزركشي .
(٢) طه : ١١٣ .
(٣) البرهان جـ٣ ص١٠ .

وإجمالاً ، وتصريف ، الكلام في ذلك حتى يتجلى إعجازه ، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه ، إذ من المعلوم أن هذا الكتاب إنما تنزل لإقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر ، ولإلزامهم بالشريعة التي فيه ، فلابد فيه من الوسائل التي تفي بتحقيق الوسيلة إلى كلا الأمرين .

ومن هنا كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ ، ويدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب ، وطريقة التصوير والعرض ، بل لابد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة ولنضرب لك مثالاً على هذا الذي نقول : بقصة موسى عليه السلام إذ إنها أشد القصص في القرآن تكراراً ، فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة على هذا التكرار .

وردت هذه القصة في حوالي ثلاثين موضعاً ، ولكنها في كل موضع تلبس أسلوباً جديداً وتخرج إخراجاً يناسب السياق الذي وردت فيه ، وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل .

وإليك مثالاً آخر : هو قصة نوح فقد وردت في سورة هود [1] ، ثم أعيد ذكرها في سورة القمر [2] اقرأ أنت نفسك القصة في السورتين ، ثم تأمل في كلا النصين ، وقارن بين أسلوب كل منهما ، وطريقته في العرض والتصوير والجانب المعنوي الذي يرتكز عليه التعبير في كل منهما ، فإنك إن تأملت في ذلك جيداً تخيلت أنك إنما تقرأ في المرة الثانية خبراً جديداً يشوقك أمره ، وتفجؤك أحداثه ، وشعرت أن النفس بحاجة إلى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين ، وبكلا الأسلوبين .

الخاصة الخامسة : وهي تداخل أبحاثه ، ومواضيعه في معظم الأحيان فإن من يقرأ هذا الكتاب المبين لا يجد فيه ما يجده في عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب المواضيع ،

---

(١) وهي في جملتها اثنتان وعشرون آية محصورة ما بين قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم منه نذير مبين﴾ وقوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ...الآية﴾ .

(٢) من الآية ٩ إلى الآية ١٥ .

وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها ، وإنما يجد عامة مواضيعه وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينها ، وقد يجدها متداخلة في بعضها في كثير من السور والآيات .

وهذه الخاصة قد خيلت لبعض محترفي الغزو الفكري من المبشرين والمستشرقين وأذنابهم وذيولهم ممن يدورون في فلكهم أن في القرآن ثلمة يمكن الدخول منها إلى اصطناع نقد أو محاولة تهديم ، أو بث تشكيك ، فأخذوا يتساءلون عن سبب هذا التداخل والتماذج في معاني القرآن ، ثم راحوا يجيبون عن تساؤلهم هذا بأنها البدائية والبساطة في منهج البحث ، وأن القرآن لا يعدو كونه مجموعة أفكار منثرة أنتجها فكر إنسان .

والحقيقة أن هذه الخاصة في القرآن الكريم ، إنما هي مظهر من مظاهر تفرده ، واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف ، هذا شيء ، وهناك شيء آخر هو أن من الخطأ في أصل النقد والبحث أن نحاكم القرآن في منهجه وأسلوبه إلى ماتواضع عليه الناس اليوم أو قبل هذا اليوم أو إلى ما سيتواضعون عليه مع تطور الزمن – من طرائق البحث والتأليف وتنسيق المعاني فهذا الذي يتوافق عليه الكاتبون من تقسيم كتبهم إلى أبواب وفصول ، ثم تضمين كل فصل منها لجملة معينة من الأبحاث والمعاني ، ليس مـرده إلى أمـرٍ إلزامي ، أو مثل أعلى يفرض عليهم ذلك ، وإنما الأمر فيه تابع للأغراض المتعلقة به ، وهو في جملته عرف يعتادونه ، وطور يمرون عليه ، ويجتازونه بعد حين إلى غيره ، فما هي الحقيقة الثابتة التي تلزم كتاب الله تعالى بأن يسير في منهجه على طور من أطوار هؤلاء العباد ، وأن يتبع تنسيقهم الذي يضعون ، أو أن تتصنف أبحاثه ومعانيه حسب المنهج الذي يشاؤون ؟ هذا إلى أن المناهج تتناسخ والأساليب تتطور كما هو معروف ، على أن هذه الخاصة تابعة لحكمة عليا يدور معها المعنى القرآني كله ، ذلك أن جملة ما في القرآن من مختلف المواضيع والمعاني الجزئية ، إنما يدور جميعه على معنى كلي واحد ، هو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيداً لله بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيداً له بالجبر والاضطرار ، وأن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه ، وأن يستيقنوا ضالة هذه الحياة بالنسبة لتلك في كل من خيرها وشرها وسعادتها وشقائها ، فالقرآن شأنه أن يبث هذا المعنى الكلي الخطير من خلال جميع ما يعرضه من الأبحاث والمواضيع المختلفة من تشريع ووعد ووعيد ، وقصة وأمثلة ووصف ، وإنما يتحقق ذلك

بهذا النسق الذي جرى عليه من التداخل والتمازج في المعاني .

فهو حينما يبدأ بعرض قصة لا يدعك – ولو في مرحلة من مراحلها تنسى – ذلك المعنى الكلي الذي ذكرناه ، فهو يخللها بما ليس منها من تهديد أووعد ووعيد أو نصيحة أو وعظ تحققاً للغرض الذي من أجله تساق القصة ، وحفظاً للفكر أن يتشتت مع أجوائها وأحداثها فينسى مساقها الأصلي.

وهو حينما يشرح لك أحكاماً في العبادات أو المعاملات أو غيرها ، يسلك بك أيضاً نفس المنهج فهو يحاذر أن تستغرق في التأمل في هذه الأحكام من حيث هي علم أو فن برأسه ، كما قد يحصل مع من ينكب على دراسة هذه الأحكام في الكتب العلمية الخاصة بها ، فيوصلها بآيات ليست منها ، فيها وعد أو وعيد أو حديث عن الآخرة أو دليل على وجود الله وعظمته ، ليتنبه الفكر ، ويظل مستيقظاً للحقيقة الكلية الكبرى التي تطوف بها جميع المعاني والأبحاث .

ولو أن القرآن اتبع في عرض معانيه ، هذا الذي يسلكه الناس في تأليفهم وأبحاثهم ، فأفرد فصولاً خاصة لعرض الأحكام والتشريع ، ثم ميز فصلاً آخر للقصص ، وجاء بفصل ثالث في وصف المغيبات كالجنة والنار وهكذا .. لو درج القرآن على ذلك لفات تحقيق الغرض الذي ذكرناه ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة انعكاساً لمعنى كلي واحد تشترك كلها في بثه والتوجيه إليه ، ولئن أمكن أن يتذكر القارئ ذلك في تمهيد أو في فصل من الفصول فلسرعان ما ينساه عندما يستغرق في قراءة أو دراسة الفصول الأخرى . وأن هذا الذي نقول ، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل والنظر في كتاب الله تعالى [1] .

---

(١) من روائع القرآن للبوطي ص١٢١–١٢٢ .

المظهر الثاني

المفـردة القرآنية

إذا تأملت في الكلمات التي تتألف منها الجمل القرآنية رأيتها تمتاز بميزات ثلاث رئيسية هي :

١- جمال وقعها في السمع .

٢- اتساقها الكامل مع المعنى .

٣- اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات .

وقد نجد في تعابير بعض الأدباء والبلغاء كالجاحظ والمتنبي كلمات تتصف ببعض هذه الميزات الثلاث أما أن تجتمع كلها معاً ، وبصورة مطردة لا تتخلف أو تشذ ، فذلك مما لم يتوافر إلا في القرآن الكريم .

وإليك بعض الأمثلة القرآنية التي توضح هذه الظاهرة وتحليلها :

انظر إلى قوله تعالى في وصف كل من الليل والصبح ﴿**والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس**﴾[1] ألا تشم راحة المعنى واضحاً قوياً من كل من هاتين الكلمتين عسعس ، وتنفس ؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة ؟

وهل في مقدورك أن تصور إقبال الليل ، وتمدده في الآفاق المترامية بكلمة أدق وأحل من "عسعس" .

وهل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من "تنفس" ؟

إنك لو فتشت في معاجم اللغة وقواميسها لا تجد فيها أدق من هاتين الكلمتين في التعبير عن

---

(١) التكوير : ١٧-١٨ .

هذين المعنيين [١] .

اقرأ قوله تعالى ﴿**يأيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض**﴾[٢].

وادرس الأداء الفني الذي قامت به لفظة " اثاقلتم " بكل ما تكونت به من حروف ، ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف اللثوي " الثاء " والمد بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التي تنطبق عليها الشفتان ، ويخرج صوتها من الأنف ، ألا تجد نظام الحروف ، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت إليك بالمعنى ، قبل أن يرد عليك المعنى من جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ في خيالك ذلك الجسم المثاقل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط في أيديهم في ثقل ؟ ألا تحس أن البطء في تلفظ الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثاقل ؟

جرب أن تبدل المفردة القرآنية ، وتحل محلها لفظة " تثاقلتم " ألا تحس أن شيئاً من الخفة والسرعة ، بل والنشاط أوحت به " تثاقلتم " بسبب رصف حروفها ، وزوال الشدة ، وسبق التاء قبل الثاء ؟ إذن فالبلاغة تتم في استعمال " اثاقلتم " للمعنى المراد ، ولا تكون في " تثاقلتم " .

تأمل قوله تعالى ﴿ **فأصبح في المدينة خائفاً يترقب** ﴾[٣] تجد لفظة " يترقب " ترسم بظلها الذي تلقيه في الخيال هيئة الحذر المتلفت في المدينة التي يشيع فيها الأمن والاطمئنان في العادة .

اقرأ قوله تعالى ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾[٤] .

وتأمل ما ضمنت من مدود : يا – ها – جعي – إلى – خلي – في – عبا – دي – خلي – تي وما ضمت من تشديد : أيتها – النفس – المطمئنة – جنتي .

---

(١) من روائع القرآن ص١٤٢–١٤٣ .
(٢) التوبة : ٣٨ .
(٣) القصص : ١٨ .
(٤) الفجر : ٢٧–٣٠ .

وما ضمت من حركات الكسر : جعي – ربك – خلي – في – دي – تني .

ثم تصور أن الميت مسجى في كفن ، والقبر فاغر فاه ، ينتظر ضيفه الجديد ، ليضمه حيناً من الزمن ، ثم يسلمه إلى الأبدية الخالدة التي لا نهاية لها ، وتصور كذلك الدموع الصامته يذرفها الأهل والأحباب لفراق عزيز أو حبيب ، عاش معهم حيناً من الزمن ، ثم فارقهم إلى سفر طويل ، لا عودة منه ، وتصور الصراع النفسي في قلوبهم ، فرح فيما هو مقبل عليه من رحمة الله ونعيمه ، وحزن إنساني لابد منه عند الوداع ، فهل تجد أوقع أثراً ، وأدق تعبيراً عن هذا الموقف الجليل وهذا الحزن ، وتلك الدموع ، وذلك الأمل العريض مما جاءت به تلك المفردات بكل ما حملت من مدود ، وشدات وغنات ، وحركات كسر ونونات ؟

وجرب أن تعيد قراءة الآيات مرات عدة ، وتأمل في الحروف ورصفها ، والمفردات كل منها على حدة ، ثم في مجموعها وتناسقها ، فلسوف تجد الحزن والرضى ، والطمأنينة قد امتزجت امتزاجاً تاماً ، وهيهات هيهات لإنسان – مهما – أوتي حظاً من الذوق والأدب – أن يبلغ إلى هذا المستوى المعجز .

استمع إلى قوله تعالى ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾[1] إن القرآن استخدم مفردة واحدة " يذبحون " مشددة " الباء " ولم يستخدمها دون تشديد مراعياً بذلك تصوير ما حدث أولا ، وكثرة ما حدث ثانياً ، ونوع ما حدث ثالثاً ، ولو جئنا بغيرها ما سد مسدها .

وانظر قوله تعالى ﴿ **إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسرورا** ﴾[2] ألا تجد مفردة " العبوس " فيها دقة بالغة حين صورت نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم ، إنهم يجدونه عابساً مكفهراً ، وما أشد اسوداده ، فيه يفقد المرء الأمل والرجاء ، وكلمة "قمطريرا" بثقل طائها مشعرة بثقل اليوم ، وفي كلمتي " النضرة والسرور " تعبير دقيق عن المظهر الحسي لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدو على وجوههم من الإشراق ، وعما يملأ قلوبهم من البهجة.

---

(١) البقرة : ٤٩ .

(٢) الإنسان : ١٠ .

وانظر قوله تعالى ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾[1] .

تجد كلمة " زحزح " تصور بظلها وجرسها مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات ، وما يصحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه ، ولو فتشت جميع معاجم اللغة وقواميسها لا تجد كلمة تصور هذا المشهد إلا كلمة " زحزح " .

وانظر إلى القرآن حينما يصف دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي تحدثن ، متقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه ، إلى جلسة لطيفة رائعة في بيتها لتطلعهن فيه على يوسف وجماله حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه . لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولا شك ، ولقد أوضح القرآن هنا ، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام ، فهذه إنما تصور شهوة الجوع ، وتنقل بالفكر إلى " المطبخ " بكل ما فيه من ألوان الطعام ورائحته وأسبابه ، وهي صورة لا تتفق مع ما تريد الآية أن تضعه أمام خيالك من مظهر المجلس الأنيق الذي يضم نسوة بينهم امرأة العزيز يطلع عليهن فيه على حين غرة : يوسف ، فانظر إلى الكلمة التي عبر بها البيان القرآني عن الطعام في هذه الحال ﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، واعتدت لهن متكأ** ﴾[2] " متكأ " كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذي إنما يقدم إلى المجلس تفكها وتبسطاً ، وتجميلاً للمجلس ، وتوفيراً لأسباب المتعة فيه ، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء ، فأي تعبير هذا الذي تمتد به الدقة في تصوير المعنى إلى هذا الحد غير تعبير القرآن الكريم [3] .

وانظر قوله تعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾[4] تجد الآية ترسم لوحتين أحدهما للسعداء ، والأخرى للأشقياء وتجد كلمة " ناضرة " قد استقلت في لوحة السعداء بتصوير أزهى لون وأبهاه ، كما استقلت كلمة " باسرة " في لوحة الأشقياء برسم أمقت لون وأنكاه [5] .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .
(٢) يوسف : ٣١ .
(٣) من روائع القرآن ص١٤٤ .
(٤) القيامة : ٢٢-٢٥ .
(٥) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص٣٣٥ .

وانظر إلى القرآن حينما صور لنا كيف أنه عز وجل قد أهلك عادا بريح عاتية داهمتهم فأخذت تقتلعهم من الأرض اقتلاعاً ، وتطيرهم في الفضاء شبه جسومهم الطوال وهي تتطاير من الأرض في سهولة سريعة بنخيل طوال ، قد نخرت ، واقتلعت جذورها من باطن الأرض ، فهي قائمة على ظاهرها لا يمسكها أي شيء ، فانظر كيف عبر عن ذلك بقوله ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في يوم نحس مستمر ۞ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾[1] وتأمل في كلمة " منقعر " كلمة واحدة ألانها التعبير القرآني لتصوير رائع ، وجعلها تدل في إشراق جميل على ما لا يمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، فهي تدل على أن النخيل قد انقطعت أصولها من باطن الأرض ولم تعد إلا عمدانا قائمة على سطحها ، إن هذه الكلمة الرائعة المصورة العجيبة يهتز لها رأس البليغ طرباً.

واقرأ قوله تعالى ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، وإن تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾[2] .

لقد ضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله أيضاً لهث [3] .

ثم تأمل هذه اللفظة العجيبة "الكلب" لقد استقلت برسم لوحة فنية رائعة أظهرت على صفحتها ضلال المكذب بآيات الله في جميع أحواله إذ كل شيء يلهث ، فإنما يلهث من أعياء أو عطش أو علة خلا الكلب فإنه يلهث في جميع أحواله ، في حال الدلال ، وفي حال الراحة ، وفي حال الصحة والمرض وحال الري والعطش ، فانظر رعاك الله إلى هذه الكلمة التي اختارها القرآن إنها تدل في إشراق وروعة على ما لا يمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، وتأمل هذه الكلمة وأمْعِن النظر فيها هل يصلح مكانها غيرها ؟

وتأمل قوله تعالى ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ،**

---

(١) القمر : ١٩-٢٠ .
(٢) الأعراف : ١٧٦ .
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٧٢٦ تحقيق السيد أحمد صقر .

ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴾[1] .

كيف دل على فضل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر [2] .

وتأمل قوله تعالى ﴿ **تطلع على الأفئدة** ﴾ [3] أي توفى عليها وتشرف ، يقال : طلع الجبل واطلع عليه ، إذا علا فوقه ، ثم أمْعِن النظر في هذه الكلمة العجيبة " الأفئدة " إنها تصور لك هؤلاء القوم بصورة الأموات الأحياء ، لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فأخبرنا القرآن بهذه اللفظة أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون ، فهل هناك في اللغة العربية – على اتساع – مفرداتها لفظة تصور لك الشيء ميتاً حياً إلاّ هذه اللفظة ؟

واقرأ قوله تعالى ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ [4] وتأمل هاتين اللفظتين " ماءها ومرعاها " كيف دل الله بهما على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ، ومتاعاً للأنام من العشب والشجر ، والحب والثمر والحطب والعصف واللباس والنار والملح لأن النار من العيدان والملح من الماء [5] .

واقرأ قوله تعالى في وصف خمر الجنة ﴿ **لا يصدعون عنها ولاينزفون** ﴾[6] وتأمل كيف نفى الله عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : "ولا ينزفون" عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب [7] .

هذه بعض الأمثلة القرآنية التي تثبت ما امتازت به مفردات القرآن الكريم من الجمال الصوتي والتناسق الفني ، والإيقاع الموسيقي ، والائتلاف المحكم ، والإيحاء العجيب ، والتصوير البديع ، مما يدل على أن نظم هذه الألفاظ ليس من وضع البشر ، وإنما هو شيء فوق مقدورهم .

---

(١) يونس : ٤٣ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص٧ .
(٣) الهمزة : ٧ .
(٤) النازعات : ٣١ .
(٥) تأويل مشكل القرآن ص٥ .
(٦) الواقعة : ١٩ .
(٧) تأويل مشكل القرآن ص٧ .

واسمع ما يقوله حجة الأدب العربي الفقيد "مصطفى صادق الرافعي" رحمه الله عن ألفاظ القرآن الكريم : " لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصوتية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي حتى أن الحركة ربما كانت ثقيلة فلا تعذب ولا تساغ فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً .. من ذلك لفظة " النذر " جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً ، فضلاً عن جسأة هذا الحرف ، ونبوه في اللسان ، ولكنه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها في حس السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال " لقد " وفي الطاء من "بطشتنا" وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو "تماروا" مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة ثم ردد نظرك في الراء من "تماروا" فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء "النذر" حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ، ولا تنبو فيه ، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون " أنذرهم" وفي ميمها ، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في "النذر" وما حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به[1].

ويقول في موضع آخر : " وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه ، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه وهي كلمة " ضيزي " [2] من قوله تعالى ﴿ تلك إذن قسمة ضيزى ﴾[3] ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أدرت اللغة العربية عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها فإن السورة التي هي منها وهي سورة " النجم " مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت في ذكر الأصنام ، وزعمهم في قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله ، مع وأدهم

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص٢٥٨ .

(٢) يقال : ضازه حقه وضامه : أي منعه ونقصه ، فهي قسمة جائرة ، والضيز : الجور .

(٣) النجم : ٢٢ .

البنات[1] فقال تعالى ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى**﴾ [2] فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى ، وكان هذا تصوير أبلغ ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل " [3] .

ثم يسترسل في الحديث عن ألفاظ القرآن الكريم فيقول : " ومما لا يسعه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ، ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صباً ، إنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها كلفظة "اللب" فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى ﴿**إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب**﴾ وقوله ﴿ **وليذكر أولو الألباب** ﴾ ونحوهما ، ولم ترد فيه مفردة بل جاء مكانها " القلب " في قوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ وذلك لأن لفظ " الباء " شديد مجتمع ، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية فلما لم تحسن اللفظة أسقطها من نظمه بتةً .

وكذلك لفظ "الكوب" استعملت فيه مجموعة ، ولم يأت بها مفردة ، لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق – من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب – كلفظ "أكواب" الذي هو الجمع و "الارجاء" لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً ، وترك المفرد وهو "الرجا" أي الجانب لعلة لفظه ، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى .

وعكس ذلك لفظة "الأرض" فإنها لم ترد فيه إلا مفردة ، ولم يرد في القرآن صيغة الجمع "أرضين" ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة ، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وذلك في قوله تعالى ﴿ **الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بَيْنَهُنَّ** ﴾ ولم يقل " وسبع أرضين " لهذه

---

(١) أي دفنهم على الحياة ، كما كان من عادتهم .
(٢) النجم : ٢١ .
(٣) إعجاز القرآن للرافعي ص٢٦١ .

الجسأة التي تدخل اللفظ ، ويختل بها النظم اختلالاً " [١] .

ويمضي في الحديث عن ألفاظ القرآن فيقول : " وتأمل قوله تعالى ﴿ **فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات** ﴾ فإنها خمسة أسماء ، أخفها في اللفظ "الطوفان ، والجراد ، والدم ، وأثقلها (القمل ، والضفادع ، فقدم "الطوفان" لمكان المدين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جيء بلفظة " الدم" آخراً ، وهي أخف الخمسة وأقلها حروف ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب ، وأنت مهما قلبت هذه الأسماء الخمسة ، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الموضع ، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولأعنتك أن تجيء منها بلفظ ، أو نظم فصيح .

ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة ، وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ، ليس يظهر أخفها من أثقلها ، فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته " [٢] .

واسمع ما يقوله المرحوم الشيخ الزرقاني في موضوع خصائص أسلوب القرآن الكريم : "للقرآن مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي ، وجماله اللغوي ، ونُرِيدُ بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكتاته ، اتساقاً عجيباً ، وائتلافاً رائعاً ، يسترعي الأسماع ، ويستهوي النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور .

ونريد بجمال القرآن اللغوي ، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته ، ترتيباً دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم ، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس ، لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص٢٦٤-٢٦٥ .
(٢) نفس المرجع ص٢٦٧ .

واختل نظامه في آذان سامعيه ، ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي ، وذلك النظام الصوتي ، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية ، كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى ، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ، ويثير الانتباه ، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله ، مصداقاً لقوله سبحانه **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[1] .

(١) مناهل العرفان جـ٢ ص٢٠٨ .

المظهر الثالث

الجملة القرآنية وصياغتها

إن دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة القرآنية لأن هذه أساس الجملة ، ومنها تركيبها ، وإذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات ، فإنّهم مقرون – دون جدال – أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته ، وللإعجاز فيها وجوه كثيرة .

فمنها : ما تجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها ، وبين تلاحق حركاتها ، وسكناتها ، فالجملة في القرآن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحروف ، وأصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق ، ويتكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال .

اقرأ قوله تعالى ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ [1] وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها ، ثم دقق نظرك ، وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة مع المهموسة والمجهورة وغيرها ، ثم حاول أن تمعن في تآلف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة بعضها ، فإنك إذا تأملت في ذلك ، علمت أن هذه الجمل القرآنية ، إنما صبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار ، وأن ذلك إنما قدر تقديراً بعلم اللطيف الخبير ، وهيهات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة [2] .

ومنها : أنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة ، دون أن تجد فيه اختصاراً مخلاً ، أو ضعفاً في الدلالة .

اقرأ قوله تعالى ﴿ **خذ العفو ، وأمر بالعرف ، واعرض عن الجاهلين** ﴾ [3] .

---

(١) القمر : ١١ ، ١٢ ، ١٣.

(٢) من روائع القرآن ص١٣٧ .

(٣) الأعراف : ١٩٩ .

ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين ، وفي " الأمر بالمعروف " تقوى الله ، وصلة الرحمن ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات ، وفي "الإعراض عن الجاهلين" الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج [1] .

واقرأ قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ، ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ [2] ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس ومأوى .

واقرأ قوله تعالى ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين** ﴾ [3] وتأمل كيف جمعت هذه الآية الكريمة – على وجازتها – بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ، أما الأمران فهما " أرضعيه " و " ألقيه في اليم" وأما النهيان فهما "لا تخافي" و "لا تحزني" .

وأما الخبران فهما " أوحينا " و " خفت " وأما البشارتان فهما " إنا رادوه إليك " و"جاعلوه من المرسلين" .

إنه الإعجاز يلبس ثوب الإيجاز فتخر لعظمته جباه أساطين البيان ، وتسجد لجماله أفكار دهاقين الكلام .

وتأمل سورة " الكوثر " وهي أقصر سورة في القرآن إذ هي ثلاث آيات قصار كيف تضمنت – على قلة آياتها – الإخبار عن مغيبين : أحدهما – الإخبار عن الكوثر "نهر في الجنة" وعظمته وسعته وكثرة أوانيه ، والثاني – الإخبار عن "الوليد بن المغيرة" وكان عند نزولها ذا مال وولد ، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده ، وانقطع نسله .

ومنها : إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس ، ثم بث الروح والحركة في هذا

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٥ .
(٢) طه : ١١٨-١١٩ .
(٣) القصص : ٧ .

المظهر نفسه .

ومكمن الإعجاز في ذلك ، أن الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أنيط بها من المعاني ، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ وسيلة لصب المعاني الفكرية المجردة في قوالب من الشخوص والأجرام والمحسوسات ، تتحرك في ظل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة الملموسة .

ومقياس هذا الذي نقول ، أنك إذا أقبلت تقرأ شيئاً من كتاب الله عز وجل بإمعان ، رأيت نفسك تستقبل معاني الآيات بكل من عقلك وخيالك معاً ، فالعقل يفهم والخيال يتصور ، وذلك على خلاف المألوف والمعروف لدى قراءة أي كلام أو كتاب آخر ، فالعقل وحده الذي يتفاعل مع الكلام والمعاني ، اللهم إلا تلك المواضيع الأخرى التي تقوم في جوهرها الأصلي على التخييل والتصوير ، ولكن القرآن ، في مواضيعه كلها ، إنما تقوم أداته التعبيرية على التصوير والتجسيم .

وانظر بعقلك وخيالك إلى القرآن الكريم حينما يصور حالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وجنوحه عن السبيل الصحيح فيقول ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ، فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ [1] .

إنه تعبير بلغ أسمى درجات الروعة ، إنه يجعلك تتخيل إنساناً التف حول عنقه غل عريض مرتفع إلى الذقن جعل رأسه صاعداً إلى الأعلى لا يتحرك ، ثم هو يقف في مكان قد سد عليه بجدران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفه ، وقد غشى الظلام على بصره ، فهو لا يملك حراكاً نحو أي اتجاه ، تلك هي صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل ، وظل مع ذلك عاكفاً على غيه وضلاله .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لك قيام الكون على أسس من النظام الرتيب والتنسيق البديع الذي لا يتخلف ، ولا يلحقه الفساد ، فيقول ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر**

---

(١) يس : ٨-٩ .

والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ﴾ [1] .

إنه يصور لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك ، وكأنك أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيها ويتصورها الشعور والخيال .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعمد إلى معنى فكري مجرد فيخرجه لك في مظهر حرب متلاحمة بين طرفين تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة ، فيقول **﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾**[2] فالقذف والدمغ والزهق كلمات ما كان ليخطر في بال أي متأمل أن يستعملها في مجال التعبير عن أن الحق هو الذي تتقبله النفوس والعقول الحرة دائماً ، ولكن المعجزة القرآنية هي التي طوعت مختلف ألفاظ اللغة لمختلف المعاني والأفكار [3] .

ثم انظر إلى القرآن الكريم وهو يصور الهزيمة والجبن والرعب والقلق النفسي الذي يسيطر على قلوب المنافقين فيقول **﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾** [4] .

تأمل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة ، وأخرج هذا المعنى الفكري في صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما يسيطر عليها من الرعب ، فهي تتقذف هنا وهناك بحثاً عن المأمن والمهرب في حركات عجيبة غريبة ، ثم تأمل الكلمات التي استقلت برسم هذه الصورة الرائعة العجيبة ، تأمل الكلمات "ملجأ ، مغارات ، مدخلا" إنها تصور في ذهنك شكلاً معيناً للملاذ الذي يبحث عنه المنهزم والخائف ، بدءاً من الشكل الطبيعي المألوف وهو الملجأ العادي من دار أو غرفة أو جماعة من الناس ، إلى الشكل الذي لا يألفه ويرتضيه إلا من اشتد خوفه وهو المغارة في باطن الأرض أو بطن الجبل ، إلى الشكل الذي هو أبعد في القبول والألف من كليهما : وهو المدخل ، أي المكان الضيق الذي لا يكاد يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد ، ولا يكاد يستطيع أن يستقر فيه إلا تضاؤلاً والتصاقاً ، ثم تأمل كلمة " يجمحون " إنها ترسم في خيالك صورة

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) الأنبياء : ١٢ .
(٣) من روائع القرآن ص١٥٢ .
(٤) التوبة : ٥٧ .

مضحكة ساخرة لهؤلاء المنافقين ، إن هذه الكلمات التي اختارها الخالق جل وعلا ، وصاغها هذه الصياغة العجيبة قد أبرزت هذا المعنى الفكري في صورة متحركة ساخرة تجسدت في الخيال حتى لتكاد العين الباصرة تراها ، واليد اللامسة تتقراها .

ثم استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لك كراهية أهل الجاهلية للأنثى إذ تولد في دار أحدهم ، ويكشف لك عما يعتمل في صدر من بشر بها من الكرب والغيظ والعصبية والصراع بين القسوة الشديدة المتولدة عن الغيظ العنيف ، والرحمة الضعيفة الصادرة عن العاطفة الأبوية ، إنه يصور ذلك كله بأسلوب رائع تسجد له البلاغة في أسمى مظاهرها وألوانها فيقول ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾ [1] .

تأمل بعقلك وخيالك هذا الأسلوب العجيب كيف أخرج هذه المعاني النفسية الخفية في صورة حسية متحركة ملموسة ؟ ثم انعم النظر في الكلمات التي استقلت برسم هذه الصورة البديعة .

تأمل كلمة " بُشر " فقد صورت بصوتها وظلها ، وجرسها تهكم من حوله به ، وتأمل قوله ﴿**ظل وجهه مسوداً وهو كظيم**﴾ فقد صور بنظمه العجيب شدة الكرب الذي انتابه ، وتأمل قوله ﴿**يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به**﴾ فقد صور بدقة تركيبه وإحكام صياغته وقع النبأ الذي حمله إليه القوم مبشرين – أي متهكمين ومشفقين – وتأمل قوله ﴿ **أيمسكه على هون أم يدسه في التراب** ﴾ فقد صور بجمال نظمه وروعة بيانه الحيرة التي تراوده وتطوف بخاطره ، وتأمل لفردة القرآنية الرائعة "يدسه" كيف أنها تشف لك عن الغيظ والعصبية والشدة التي تلبست بها حالة الرجل وأعضاؤه ، وكيف تصور لك مقاومة الدفع المغتاظ للرحمة في مظهرها الضعيف المتألم المسالم ؟

---

(١) النحل : ٥٨ .

الفصل الرابع

الإعجاز والبلاغة

لقد نشب صراع حاد وعنيف بين علماء البلاغة حول الصور والألوان البلاغية في القرآن الكريم ، هل هي معجزة أو غير معجزة ؟

ففريق منهم يرى أنها معجزة ، ويجعلها من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وفريق آخر يرى أنها غير معجزة ، وينفي أن تكون من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، ومن هذا الفريق "أبو بكر الباقلاني"[1] .

والمسألة تحتاج إلى بحث وتحقيق ، وفي هذا الفصل من البحث سأقوم بتحقيقها ، وإظهار وجه الصواب فيها فأقول طالباً العون والتوفيق من الله وحده :

إن هذه الصور والألوان معجزة في القرآن ، وإعجازها راجع إلى نظمها ، فالقرآن الكريم – كما سبق أن وضحنا – معجز بنظمه ، وهذه الصور والألوان قد اقتضاها هذا النظم المعجز فأصبحت جزءاً منه فتكون معجزة ولقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني عندما تعرض لتوضيح الاستعارة في قوله تعالى ﴿ **واشتعل الرأس شيبا** ﴾[2] فقال : " إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته .

ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى ﴿**واشتعل الرأس شيبا**﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجباً سواها ، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية ، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتي بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده ، مبيناً أن ذلك الإسناد ، وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من هذا الاتصال والملابسة كقولهم : طاب زيد نفساً ، وقرَّ عمرو عيناً ، وتصبب عرقا ، وكرم أصلاً ، وحسن وجهاً ، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولا عن الشيء إلى

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص١٦٩ .

(٢) مريم : ٤ .

ما ذلك الشيء من سببه ، وذلك أنا نعلم أن "اشتعل" للشيب في المعنى ، وإن كان هو للرأس فقط ، كما أن "طاب" للنفس ، و"قرَّ" للعين ، و"تصبب" للعرق ، وإن أسند إلى ما أسند إليه ، يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول : "اشتعل شيب الرأس" أو "الشيب في الرأس" ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له لفضل ، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب إنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس ، الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ، وهذا ما لا يكون إذا قيل : "اشتعل شيب الرأس" أو " الشيب في الرأس بل لا يوجد اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أن تقول : "اشتعل البيت نارا" فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول : "اشتعلت النار في البيت" فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه ، وأصابتها جانباً منه ، فأما الشمول ، وأن تكون قد استولت على البيت ، وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة ، ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل ﴿ **وفجرنا الأرض عيونا** ﴾[1] التفجير للعيون في المعنى ، وواقع على الأرض في اللفظ ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ها هنا مثل الذي حصل هناك .

وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها ، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل : " وفجرنا عيون الأرض " ، " أو العيون في الأرض " لم يفد ذلك ، ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض ، وتبجس من أماكن فيها " [2] .

من هذا النص يتضح لنا أن عبد القاهر يرجع جمال الاستعارة وشرفها وروعتها في القرآن الكريم

---

(١) القمر : ١٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص٧٩-٨٠ وانظر تلخيص البيان للشريف الرضي ص٢٢٠

إلى نظمها العجيب البديع ، وكم كنت أود أن يتناول هذا الأديب الذواقة الصور والألوان البلاغية في القرآن بهذه العبارة الفياضة وبتلك الطريقة البيانية الرائعة التي تشف عن الجمال الأخاذ والإعجاز الرائع الذي يكمن في هذه الصور ، وينبع من نظمها العجيب الذي لا يقدر على مثله بشر، ولكنه وقف عند لمحة من لمحاته الجزئيه شأنه في ذلك شأن غيره من بلغاء عصره .

وأنا أضيف إلى ما قاله الشيخ عبد القاهر أن جميع الصور والألوان البلاغية ينطبق عليها ما انطبق على الاستعارة فهي معجزة، وإعجازها يكمن في نظمها ، وهذا هو محط الفرق بينها في القرآن وبينها في كلام العرب فهي معجزة في القرآن لأن نظمها معجز ، وغير معجزة في كلام العرب لأن نظمها غير معجز .

وقد خفيت هذه الحقيقة على بعض علماء البلاغة كالباقلاني فنفى أن تكون هذه الألوان والصور معجزة في القرآن الكريم لأنها توجد في الشعر ، وغاب عنه الفرق بين هذه الصور والألوان في القرآن وبينها في كلام العرب وإليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثلة القرآنية التي توضح هذه الحقيقة وتجليها .

من روائع التشبيه في القرآن الكريم :

قال تعالى ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس** ﴾[1] .

شبه القرآن حال الدنيا في سرعة تقضيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة فكأنها لم تكن بالأمس .

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك نظم الآية الكريمة إنها مكونه من عشر جمل لو سقط منها شيء

(١) يونس : ٢٤ .

اختل التشبيه ، وانظر إلى هذه الجمل تجد كل جملة تعبر عن مشهد من مشاهد الحياة الدنيا ، وقد رتبت ترتيباً عجيباً كأن كل جملة منها تلد التي تليها ، وقد تكونت كل جملة من طائفة من الكلمات تآلفت بأصواتها وظلالها وأجراسها فعبرت أصدق تعبير عن المشهد الذي استقلت به ، إن نظمها مفصل على معناها بمقدار ، بحيث إذا أخرت أو قدمت أو غيرت كلمة بأخرى أو حرفاً بآخر اختل المعنى ، وتبعثرت مشاهد الصورة الدنيوية .

قال تعالى ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا** ﴾ (1) . شبه القرآن أعمال الذين كفروا في ضياعها ، وذهابها إلى غير عودة بهيئة رماد تذروه الرياح وتذهب به بددا ، إلى حيث لا يتجمع أبدا .

تأمل نظم الآية تجد كل كلمة قارة في مكانها ، مطمئنة في موضعها لا تشكو قلقلاً ولا اضطرابا ، معبرة في دقة وصدق عن معناها ، وتأمل تناسق الكلمات وتآلفها ، وترتيب الجمل وتعانقها ، ومخارج الحروف وأصواتها ، وإيحاءات الألفاظ وإشاراتها تجد نظماً عجيباً لا يقدر عليه إلا خالق الأرض والسموات .

تأمل كلمة "رماد" إنها توحي بخفة الوزن ، وتأمل "اشتدت" فإنها توحي بسرعة الرياح وتأمل كلمة "عاصف " فإنها توحي بالعنف .

وتأمل كيف أبرز لك هذا التشبيه ببديع نظمه الصورة حية متحركة كأنك تراها وتلمسها .

قال تعالى ﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل**﴾(2) .

شبه القرآن الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة الله في كثرة ثوابها ومضاعفة أجرها بجنة فوق ربوة أصابها مطر غزير فأخصبت تربتها ، وتضاعف أكلها .

تشبيه رائع وجميل يهز العواطف ، ويحرك الأحاسيس والمشاعر ، وتسجد له البلاغة في أسمى معانيها وألوانها .

---

(1) إبراهيم : ١٨ .
(2) البقرة : ٢٦٥ .

تأمل نظم الآية العجيب كلمات إلهية لا يصلح في مكانها غيرها تعبر عن معانيها في دقة وإحكام ، وتنبعث منها لطائف وأنوار ، وينطوي تحتها الكثير من العجائب والأسرار ، وجمل ربانية متناسقة متلاحقة قد فصلت على معانيها بمقدار ، وحروف ذات أصوات وأنغام تبعث في الصورة الحركة وتبث فيها الحياة .

إنما من يقرأ الآية الكريمة ، ويتذوق حلاوتها يخيل إليه أنه يرى هذه الصورة الغيبية الخفية ماثلة أمام عينيه ، وأنه يلمسها ويتقراها بيديه ، أبعد هذا التصوير يأتي مكابر جهول يصف التشبيه القرآني بأنه عن الإعجاز معزول ؟

قال تعالى ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾ [1] .

شبه القرآن الكريم حال هؤلاء الذي اتخذوا من دون الله أندادا في لجوئهم واحتمائهم بهؤلاء الأنداد الضعفاء المتناهين في الضعف بحال العنكبوت حينما تأوي إلى بيتها الضعيف الواهن وتحتمي به.

صورة عجيبة تلح على الحس والوجدان ، وتجتذب إليها الالتفات ، وتسترعي الانتباه ، وتسترق الأسماع وتبهر الألباب وتستولي على الأحاسيس والمشاعر ، ويقف أمامها دهاقين لكلام حيارى يتساءلون كيف نظمت هذه الصورة ؟ وكيف تكونت ؟ ثم لا يجدون من يجيبهم على تساؤلاتهم ، لأن البشر مهما أوتوا من البراعة والبيان لا يمكنهم الوصول إلى معرفة سر نظم القرآن .

إنها تصور لك هؤلاء العباد الغافلين بصورة العناكيب الضئيلة الواهنة ، وتصور لك هؤلاء الأنداد الضعفاء العاجزين بصورة بين العنكبوت الذي يضرب به المثل في الضعف والوهن .

وأظنك أيها القارئ الكريم لست في حاجة إلى أن أحدثك عن نظم هذه الصورة البلاغية فذلك متروك لذوقك وإحساسك ، ولكنني أدعوك إلى النظر والتأمل في الكلمات التي اختيرت للمشبه به ونظمت منها صورته " كمثل العنكبوت اتخذت بيتا.." هل في مقدورك أو في مقدور أي بليغ مهما

---

(١) العنكبوت : ٤١ .

كان حظه من الفصاحة والبيان ، ومهما كان يحفظ من مفردات اللغة العربية أن يأتي بألفاظ تسد مسد هذه الألفاظ التي نظمت منها صورة المشبه به ؟ إن أحداً من البشر لن يستطيع ، واللغة العربية على اتساع مفرداتها ليس فيها ما يسد مسد هذه الألفاظ .

إنها الصياغة الإلهية يقف البشر أمامها دائماً عاجزين حيارى منهولين .

قال تعالى ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ [1] .

تأمل الصورة التشبيهية التي اشتملت عليها الآية الكريمة .

لقد شبه القرآن الكريم في هذه الآية حال المكذب بآيات الله في إصراره على ضلاله في جميع أحواله بحال الكلب في إدامة لهثانه .

إنها صورة فنية رائعة أحكم القرآن الكريم صياغتها ، وأجادت القدرة الإلهية رسمها ، تكشف في جلاء ووضوح عن حقيقة هذا المكذب الضال ، إنه حقير قذر ، لا يؤثر فيه النصح والإرشاد ولا ينفع معه الوعظ والتذكير ، قد ركب رأسه ، ولج في ضلاله ، واتخذ الشيطان إلهاً من دون الله ثم تأمل الكلمات التي نظمت منها صورة المشبه به لا تجد في مفردات اللغة – على كثرتها ، من يقوم مقامها ويسد مسدها ، ثم تأمل كلمة "الكلب" وحدها لا تجد كلمة في اللغة تصور هذا المعنى وتبرزه في صورة حية متحركة سواها ، إذ كل مخلوق إنما يلهث من مرض أو عطش أو إعياء إلا الكلب فإنه يلهث في جميع أحواله في حال الدلال ، وفي حالة الراحة ، وفي حالة الصحة والمرض وفي حالة الري والعطش .

قال تعالى ﴿ **وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ [2] .

شبه القرآن الكريم الحور العين باللؤلؤ المكنون في الصفاء والنقاء والهدوء والصيانة .

---

(١) الأعراف : ١٧٥ .
(٢) هود : ٤٢ .

تأمل نظم هذه الصورة التشبيهية الإلهية إنه فوق طاقة البشر ، ثم تأمل هذه الكلمة العجيبة "اللؤلؤ" هل في مقدورك أو في مقدور أي بليغ مهما أوتي من البراعة والبيان أن يأتي بكلمة أخرى تؤدي معناها ، وتصور ما صورته ؟ ثم تأمل الدقة في وصف هذا اللؤلؤ بكونه مكنونا .

إن اللؤلؤ فيه الصفاء والهدوء والنقاء ، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان ويحرص عليها .

تأمل الارتباط العجيب والصلة الوثيقة بين الحور العين واللؤلؤ المكنون ، إنه الإعجاز يلبس ثوب التشبيه فيقف البلغاء أمامه ضعفاء قد استولت عليهم الحيرة وسيطرت على عقولهم الدهشة وداعبت أنامل الاعجاب حبات قلوبهم فخروا ساجدين لعظمته ، وشهدوا بأنه البيان الإلهي الذي لا يقدر عليه بشر .

قال تعالى ﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال** ﴾[1] .

شبه القرآن الكريم الموج الذي تمخر عبابه سفينة نوح عليه السلام بالجبال في الضخامة ، والارتفاع تشبيه رائع جميل يصور للعين هذه الأمواج المتلاطمة ، كما يصور للنفس ما يحس به ركاب هذه السفينة ، ثم تأمل هذه الكلمة الإلهية "الجبال" هل في مفردات اللغة – على كثرتها من يقوم مقامها في هذا الموضع ، ويؤدي معناها ويوحي بما توحي به ، ويصور ما تصوره ؟

وإذا كان من الشعراء والكتاب من شبه بالجبال ، فإنما هو متأثر بالقرآن ولكن شتان ما بين نظم القرآن ونظم الأنام ، إنه يشبه بالجبال ويحسب أن البيان كلمات متراصة بلا نظام ، ولكن ما هكذا يا سعد تورد الإبل ، إن النظم القرآني سر عجيب لا يعرفه إلا من يعلم الخبء في السموات والأرض وكنز ثمين لا يملك مفتاحه إلا علام الغيوب .

قال تعالى ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾[2] .

شبه القرآن الكريم الهلال في آخر الشهر حين يصير دقيقاً نحيلاً محدوداً بالعرجون القديم .

تشبيه إلهي عجيب يصور للعين القمر كما تراه ، ويصوره للنفس كما تحس به .

---

(١) الواقعة : ٢٢–٢٣ .

(٢) يس : ٣٩ .

تأمل كلمة " العرجون " كيف رسمت بظلها وإيحائها هذه الصورة الصادقة الجميلة ؟ وكيف استوعبت أجزاءها في دقة وإحكام ؟ إنها تريك هذا الهلال وكأنه في السماء كوكب تائه لا أهمية بأمره وتحمل إلى نفسك ضالته ونحوله معاً ثم تأمل الدقة في وصف هذا العرجون بكونه قديماً ، إن هذه الصورة لا تتم إلا بهذا الوصف ، ثم فتش في مفردات اللغة هل تجد فيها كلمة ترسم هذا المنظر سوى هذه الكلمة ؟

ولكي يستبين لك الإعجاز في النظم القرآني انظر إلى صورة هذا الهلال في كلام البشر ، انظر إلى ابن المعتز حين وصف هذا الهلال وقد خيل إليه أنه أحسن وأجاد ، وأتى بما لم يأت به غيره قال:

انظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

إنه رسم لهذا الهلال الجميل صورة شوهاء متخيلة ، فأين الزورق الضخم من هذا الهلال النحيل؟

تأمل الصياغة القرآنية في جمالها وصدقها وإعجازها ، وتأمل الصياغة البشرية في رداءتها وتفككها وسماجتها ، تأمل الصياغة القرآنية في قوة تأثيرها ، وقدرتها على التصوير .

وتأمل الصياغة البشرية في هزالها وضعفها .

قال تعالى ﴿**يوم يكـون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش**﴾ [1].

شبه القرآن الكريم الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث في ضعفهم وضآلتهم وتهافتهم .

وشبه الجبال بالعهن " الصوف " المنفوش في هشاشتها وخفتها .

مشهدان رائعان رسمتهما القدرة الإلهية فأجادت وأعجزت ، وسحرت وأدهشت.

تأمل هذه الكلمة " الفراش " إنها تصور لك بظلها وجرسها ، وإيحائها الناس في هذا اليوم في منتهى الضعف والضآلة ، وهم متسطارون مستخفون من هول هذا اليوم .

وتأمل الدقة في وصف الفراش بكونه مبثوثا إن هذا الوصف يصور لك كثرة الناس في هذا اليوم

---

(١) القارعة : ٤-٥ .

وتهافتهم ، ثم حدثني بربك هل في مفردات اللغة كلمة تصور هذا المشهد سوى هذه الكلمة القرآنية؟

وهل هناك أعجب من هذه الدقة في وصف الفراش بكونه مبثوثا ؟

ثم دقق نظرك في كلمة " العهن " هل في قواميس اللغة العربية كلمة أقدر على تصوير هذا المشهد من هذه الكلمة ؟ إنها بجمالها وظلها وجرسها الساحر تصور لك الجبال الضخمة الثابتة بالصوف المنفوش الذي تتقاذفه الرياح الهوج ، ثم تأمل بعقلك وخيالك الدقة والإحكام في وصف العهن بكونه منفوشا إن هذا الوصف يصور لك الجبال الضخمة الثابتة في منتهى الهشاشة والخفة .

إنه النظم القرآني يبهر العقول ، ويطير بالألباب ، ويذهب بسر البلاغة وسحر البيان .

قال تعالى ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾[1].

شبه القرآن الكريم ما يجب أن يكون عليه المجاهدون في سبيل الله من الالتحام والترابط الوثيق والاجتماع القوي بالبنيان المرصوص .

تشبيه عجيب إنه يصور لك المجاهدين يشد بعضهم أزر بعض بالبنيان المرصوص ، في قوة تماسكه وشدة ترابطة والتحامه ، أرأيت أعجب من هذا التصوير ؟

حدثني بربك لو استبدلت كلمة "البنيان المرصوص" بكلمة "حائط أو جدار" هل تثير في نفسك ما تثيره هذه الكلمة القرآنية من معنى الالتحام وقوة الاتصال ؟

إنها بلا شك أقدر على التصوير من أي كلمة أخرى ، ثم تأمل الدقة القرآنية في وصف البنيان بكونه مرصوصا ، إن المعنى لا يتم بدونها [2] ، وقوة التأثير لا تتحقق إلا بها .

إنه النظم القرآني في تماسكه الفني ، وترابطه القوي ، يسترق الأسماع ، ويثير في النفس أسمى آيات الإعجاب .

---

(١) الصف : ٤ .

(٢) أي كلمة " مرصوص " .

قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾[1] .

شبه القرآن الكريم الضيق الذي يشعر به المنافقون عندما يسمعون دعوة الحق بالضيق الذي يحس به من يصعد جبلاً عالياً .

إنه تشبيه فوق طاقة أساطين البيان وصناع الكلام ، إنه يصور لك هؤلاء للمنافقين عندما تقرع أسماعهم دعوة الحق فيضيقون بها.بمن يصعد جبلاً عالياً ضخماً شامخاً فهو يجر نفسه ، ويلهث من التعب والعناء .

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك قوله " يصعد في السماء " إنه يصور لك في دقة وإحكام مدى ما يشعر به هذا الإنسان من التعب الشديد والعناء المضني المميت ، قل لي بربك لو استبدلت كلمة "يصعد" بكلمة "يصعد" من غير تشديد ألا تحس أن التعب قد خف ، وأن العناء قد تضاءل ؟

إن هذه الكلمة القرآنية بظلها وجرسها وإيحائها هي وحدها من بين مفردات اللغة العربية القادرة على تصوير هذا الضيق وإبرازه في صورة حية متحركة مشاهدة ملموسة تأمل الصياغة القرآنية وجمالها وقوة تأثيرها وقدرتها على التصوير ، إنها السر الخفي الذي لا يصل البشر إلى معرفته مهما أوتوا من قوة البيان ، وبرعوا في ميدان صناعة الكلام .

وهذا غيض من فيض مما يزخر به القرآن من نفائس البيان في هذا الميدان .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

قال تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾[1] .

استعير في الآية الكريمة : " السلخ " وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لإزالة ضوء النهار عن الكون قليلاً قليلاً ، بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شيء كان خافياً ، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة ، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التي هي الأصل والنور طارئ عليها ، يسترها بضوئه ، ثم اشتق من السلخ : " نسلخ " بمعنى "نزيل" .

وهذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة " الاستعارة التصريحية التبعية " .

استعارة رائعة وجميلة ، إنها بنظمها الفريد وبإيحائها وظلها وجرسها قد رسمت منظراً بديعاً للضوء وهو ينحسر عن الكون قليلاً قليلاً وللظلام وهو يدب إليه في بطء .

إنها قد خلعت على الضوء والظلام الحياة ، حتى لقد صارا كأنهما جيشان يقتتلان ، قد انهزم أحدهما فولى هارباً ، وترك مكانه للآخر .

تأمل اللفظة المستعارة وهي " نسلخ " إن هذه الكلمة هي التي قد استقلت بالتصوير والتعبير داخل نظم الآية المعجز فهل يصلح مكانها غيرها ؟

قال تعالى ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾[2] .

استعير في الآية الكريمة خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً بجامع التتابع على طريق التدريج ، ثم اشتق من التنفس بمعنى خروج النفس ، تنفس بمعنى خرج النور من المشرق عند انشقاق الفجر .

استعارة قد بلغت من الحسن أقصاه ، وتربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد ، إنها قد خلعت على الصبح الحياة حتى لقد صار كائناً حياً يتنفس ، بل إنساناً ذا عواطف وخلجات نفسية ،

---

(1) يس : ٣٧ .
(٢) التكوير : ١٨ .

تشرق الحياة بإشراقة من ثغره المنفرج عن ابتسامة وديعة ، وهو يتنفس بهدوء ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء ، أرأيت أعجب من هذا التصوير ، ولا أمتع من هذا التعبير ؟

ثم تأمل اللفظة المستعارة وهي " تنفس " إنها بصوتها الجميل وظلها الظليل ، وجرسها الساحر قد رسمت هذه الصورة البديعة في إطار نظم الآية المعجز ، فهل هناك لفظ من ألفاظ اللغة العربية على كثرتها يؤدي ما أدته ، ويصور ما صورته ؟

قال تعالى ﴿ **إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية** ﴾[1] .

استعير في الآية الكريمة " الطغيان " لكثرة الماء بجامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعلاء المفرط في كل منهما .

ثم اشتق من الطغيان : " طغى " بمعنى كثر .

استعارة فريدة لا توجد في غير القرآن إنها تصور لك الماء إذا كثر وفار واضطرب بالطاغية الذي جاوز حده ، وأفرط في استعلائه ، أرأيت أعجب من هذا التصوير الذي يخلع على الماء صفات الإنسان الآدمي ؟ ثم تأمل اللفظة المستعارة " طغى " إنها بصوتها وظلها وجرسها وإيحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الساحرة في إطار نظم الآية المعجز .

قال تعالى ﴿ **فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين** ﴾[2] .

استعير في الآية الكريمة : " الصدع " وهو كسر الزجاجة للتبليغ بجامع التأثير في كل منهما أما في التبليغ فلأن المبلغ قد أثر في الأمور المبلغة ببيانها بحيث لا تعود إلى حالتها الأولى من الخفاء ، وأما في الكسر فلأن فيه تأثيراً ألا يعود المكسور معه إلى الالتئام .

ثم اشتق من الصدع بمعنى التبليغ اصدع بمعنى بلغ .

---

(١) الحاقة : ١١ .

(٢) الحجر : ٩٤ .

استعارة رائعة وجميلة إنها تبرز لك ما أمر به الرسول ﷺ في صورة مادة يشق بها ويصدع ، إنها تبرز لك المعنى المعقول في صورة حسية متحركة كأنك تراها بعينك وتلمسها بيدك ، تأمل اللفظة المستعارة "اصدع" إنها بصوتها وجرسها وإيحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الفريدة المؤثرة إذ إن من يقرأها يخيل إليه أنه يسمع حركة هذه المادة المصدوعة ، تخيل لو استبدلت كلمة "اصدع" بكلمة "بلغ" ألا تحس أن عنصر التأثير قد تضاءل ، وأن الصورة الحية المتحركة قد اختفت وأن المعنى قد أصبح شاحباً باهتاً ؟

إن اللفظة المستعارة هي التي رسمت هذه الصورة في إطار نظم الآية المعجز .

قال تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾[1] .

استعير في الآية الكريمة الموج "حركة الماء" للدفع الشديد بجامع سرعة الاضطراب وتتابعه في الكثرة ثم اشتق من الموج بمعنى الدفع الشديد "يموج" بمعنى يدفع بشدة .

إن هذه الاستعارة القرآنية الرائعة تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب ، تأمل اللفظة المستعارة إنها في إطار نظم الآية المعجز قد استقلت برسم هذا المشهد بصوتها وجرسها وإيحائها .

قال تعالى ﴿ الر ۞ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾[2] .

استعير في الآية الكريمة الظلمات للضلال بجامع عدم الاهتداء في كل منهما ، واستعير النور للهدى بجامع الاهتداء في كل منهما ، وهذا المسلك الأدبي يسميه علماء البلاغة "الاستعارة التصريحية الأصلية" .

هذه الاستعارة الفريدة تجعل الهدى والضلال يستحيلان نوراً وظلمة ، إنها تبرز المعاني المعقولة الخفية في صور محسوسة ، حية متحركة كأن العين تراها واليد تلمسها .

---

(١) الكهف : ١٠٠ .
(٢) إبراهيم : ١ .

تأمل كلمة " الظلمات " إنها تصور لك بظلامها الضلال ليلاً دامساً يطمس معالم الطريق أمام الضال فلا يهتدي إلى الحق ثم تأمل الدقة القرآنية في جمع "الظلمات " إنه يصور لك إلى أي مدى ينبهم الطريق أمام الضال فلا يهتدي إلى الحق وسط هذا الظلام المتراكم .

ثم تأمل كلمة " النور " إنها بنورها تصور لك الهداية مصباحاً منيراً ينير جوانب العقل والقلب ويوضح معالم الطريق أمام المهتدي فيصل في سهولة ويسر إلى الحق فينتفع به فيطمئن قلبه وتسكن نفسه ويحظى بالسعادة في دنياه وأخراه .

قال تعالى ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ، تكاد تميز من الغيظ** ﴾[1] .

في هذه الآية الكريمة شبهت جهنم بشخصية آدمية ثائرة غاضبة محنقة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " الغيظ " وهذا الصنيع الأدبي يسميه علماء البلاغة "الاستعارة المكنية" .

إن هذه الاستعارة لا يمكن لإنسان مهما أوتي من قوة البيان أن يصور ما فيها من الحسن والجمال إنها بنظمها الفريد وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان ، الذي من شأنه أن يبالغ في الانتقام ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام ، إنها خلعت على النار الحياة ، وأبرزتها في صورة آدمية لها انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية فهي تشهق شهيق الباكين ، وتغضب وتثور ، وهي ذات نفس حادة الشعور [2] .

قال تعالى ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب** ﴾[3] .

في هذه الآية الكريمة شبه الغضب بالإنسان الثائر الغاضب ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " السكوت " إن هذه الاستعارة الفريدة فوق مقدور البشر ، إن نظمها تنبعث منه لطائف وأنوار لا يدركها إلا من تذوق حلاوة القرآن ، إنها تجسم الغضب ، وتلبسه ثوب الإنسان

---

(١) الملك : ٦-٨ .
(٢) مجازات القرآن ص٣٣٩ .
(٣) الأعراف : ١٥٤ .

الآدمي وتخلع عليه أوصافه ، إنها تصوره وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة ، ثـم سكت وكف عن دفعه وتحريضه .

قال تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾[1] .

شبهت في الآية الكريمة كل من الأرض والسماء بالإنسان المستجيب لنداء ربه المسارع إلى تنفيذ أوامره ونواهيه ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "القول" وهذا التعبير الفني يسـميه علماء البلاغة "الاستعارة المكنية" .

إن هذه الاستعارة الساحرة تخلع على الأرض والسماء الحياة وتلبسهما صورة الآدمـي وتمنحهمـا أوصافه من الإرداة والطاعة والاستجابة والمسـارعة إلى مرضـاة الله بتنفيـذ الأوامـر مـا أعجـب هـذا التصوير وما ألذه وأمتعه ، إنك حين تقرأ الآية في تدبر يخيل إليك أن الأرض والسماء إنسـانان يقفـان في خشوع وخضوع وأن مولاهما يأمرهما فيطيعان ويدعوهما فيستجيبان ، قل لي بربك هل هناك أعجب من هذا التصوير الذي ينطق الجماد ويبعث فيه الحياة ويحوله إنساناً قانتاً طائعاً متبتلاً ؟

قال تعالى ﴿ **وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾[2] شبه الرعب في الآية الكريمة بأداة صلبة ثقيلة سريعة ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "القذف" .

انظر إلى هذه الاستعارة الفريدة إنها تصـور لـك الرعـب وكأنـه قذيفـة تنفـذ في القلوب لفورهـا تصوير رائع جميل يبرز لـك المعـاني النفسـية الخفيـة في صـور محسوسـة حيـة متحركـة كـأنك تراهـا وتلمسها ، تأمل كلمة "قذف" إنها توحي بالقوة ، ثم تأمل اسناد هذه الكلمـة إلى "الرعـب" ومـدى ما يحدثه هذا الإسناد من التجسيم الذي يثير في النفس أقصى درجات الخـوف والانزعـاج إنـه النظـم القرآني يصور فيبدع ، ويعبر فيعجز .

قال تعالى ﴿ **ربنا افرغ علينا صبرا** ﴾[3] شبه الصبر في الآية الكريمة بالسائل ثم حذف المشـبه بـه

---

(١) فصلت : ١١ .
(٢) الحشر : ٢ .
(٣) البقرة : ٢٥٠ .

ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "أفرغ" وهذا الصنيع الأدبي يسميه علماء البلاغة "الاستعارة المكنية" إن هذه الاستعارة الفريدة تجعل الصبر يستحيل سائلاً يفرغ على الجسم فيهدأ وتحس به النفس فتسكن ويشعر به القلب فيطمئن ، إنها تبرز لك هذا المعنى النفسي الخفي في صورة حسية مشاهدة ملموسة ثم تأمل الدقة القرآنية في اختيار كلمة "أفرغ" إنها توحي باللين والرفق الذي يتطلبه المقام وتتشوف إليه نفوس هؤلاء الداعين ، ثم تأمل ما يحدثه إيقاع هذه الكلمة على الصبر من التجسيم الذي يبعث في النفي أقصى درجات الاطمئنان والسكون والهدوء .

قال تعالى ﴿ **فصب عليهم ربك سوط عذاب** ﴾[1] .

شبه في الآية الكريمة العذاب الشديد بالسائل الذي يصب في شدة وقوة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "الصب" وهذا الصنيع الأدبي يسميه علماء البلاغة "الاستعارة المكنية" .

إن هذه الاستعارة تجعل العذاب الشديد يتسحيل سائلاً يصب في شدة وقوة فتضطرب له الأجسام وتنزعج من صبه النفوس وتنخلع لقوته القلوب .

تصوير عجيب يبرز لك هذا المعنى النفسي في صورة حية متحركة ملموسة مشاهدة مؤثرة .

ثم انظر الدقة في استعمال كلمة الصب هنا إنها توحي بالشدة والقوة معاً وهذا الإيحاء يتلاءم مع هذا المقام مقام التعذيب ، وتأمل ما يحدثه إيقاع هذا الصب على العذاب الشديد في الآية الكريمة إنه يثير في النفس أقصى درجات الإحساس والشعور بالتعذيب .

قال تعالى ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾[2] .

شبهت الريح في الآية الكريمة بالإنسان الجبار المتكبر العنيف ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "العتو" وهذا المسلك الأدبي يسميه علماء البلاغة "الاستعارة المكنية" إن هذه الاستعارة الفريدة تخلع على الريح الحياة وتبرزها لك في صورة الإنسان الجبار المتكبر المفرط في العنف والاستعلاء ، ما أعجب هذا التصوير القرآني الذي يجعل الريح تستحيل إنساناً بلفظة واحدة ، إن

---

(١) الفجر : ١٣ .
(٢) الحاقة : ٦ .

هذه اللفظة وهي "عاتية" دقق نظرك فيها إنها توحي بالعنف والجبروت ثم تأمل الدقة القرآنية في إسناد هذه اللفظة إلى ضمير الريح إن هذا الإسناد هو الذي خلع عليها الحياة ومنحها صفات الإنسان العنيف ، حدثني بربك هل هناك أعجب من هذا التصوير الذي يلبس الريح شخصية الآدمي الشرير المجاوز الحد في العنف والجبروت ؟

ثم دقق نظرك في مدى ما يحدثه هذا التصوير من التأثير في النفس والقلب معاً إن النفس لتذوب من هول هذا التصوير وإن القلب ليكاد ينخلع من شدته .

قال تعالى ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأسآء والضرآء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب**﴾[1].

استعير في الآية الكريمة " الزلزال " للاضطراب الشديد بجامع التأثير الشديد في كل منهما ، ثم اشتق من الزلزال ، زلزلوا ، بمعنى اضطربوا اضطراباً شديداً وهذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة " الاستعارة التصريحية التبعية " .

إن هذه الاستعارة القرآنية الفريدة قد صورت الاضطراب الشديد ذلك المعنى النفسي الخفي بصورة الزلزال العنيف المدمر فأبرزته في صورة حسية متحركة ملموسة مشاهدة تنخلع لهولها القلوب ، وتذهب من شدتها العقول ، وتزوغ من قوتها الأبصار .

إن هذه الصورة العجيبة البالغة التأثير قد استقلت برسمها كلمة واحدة هي اللفظة المستعارة "زلزلوا" إن هذه الكلمة بصوتها وجرسها وإيمائها هي التي جسمت هذا المعنى الخفي وأبرزته في تلك الصورة .

إن أي لفظة أخرى لا تسد مسدها ولا تقوم مقامها في تحقيق المعنى المطلوب وتصوير الحالة المرجوة .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

قال تعالى ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون** ﴾[1] .

استعير في الآية الكريمة " الأودية " للموضوعة أصلاً للدلالة على المنخفض بين مرتفعين للأغراض الشعرية التي يلخصها الشعراء بأفئدتهم ، ويصوغونها بأفكارهم ، وهذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة "الاستعارة التصريحية الأصلية" .

إن هذه الاستعارة الفريدة تجسم لك تلك المعاني الفكرية المجردة وتبرزها في صورة محسوسة مشاهدة ملموسة ، ثم تحولها إلى أودية سحيقة ، فهي لا تقف عند حد التجسيم والتشخيص ، بل تتعداه إلى التصيير والتحويل ، وهذا مما انفردت به الاستعارة في القرآن الكريم .

تأمل اللفظة المستعارة " الأودية " إنها وحدها قد استقلت برسم هذه الصورة العجيبة في إطار نظم الآية المعجز ، لقد اختارها القرآن دون سواها لما بين الفكر والوادي من تَنَاسُبٍ في العمق والبعد والخفاء والغموض .

---

(١) الشعراء : ٢٢٤-٢٢٥ .

قال تعالى ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾[1] لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة "الحرث" عن المعاشرة الزوجية .

إن هذه الكناية الفريدة مما انفرد به القرآن الكريم فهي لطيفة دقيقة راسمة مصورة ، مؤدبة مهذبة ، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتهذيب مالا يستقل به بيان ، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن ، إنها عبرت عن المعاشرة الزوجية التي من شأنها أن تتم في السر والخفاء بالحرث وهذا نوع من الأدب رفيع لا يوجد في غير القرآن ، وهذا اللفظ فضلاً عما فيه من الأدب وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية ، وتنطوي تحته معان كثيرة تحتاج في التعبير عنها إلى آلاف الكلمات ، انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزراع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذي تخرجه الزوج ، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح كل هذه الصور والمعاني تنطوي تحت كلمة "الحرث" أليست هذه الكلمة معجزة بنظمها وتصويرها ؟ هل في مفردات اللغة العربية – على كثرتها – ما يقوم مقامها ويؤدي ما أدته ويصور ما صورته ؟ إن المعنى لا يتحقق إلا بها ، وإن التصوير لا يوجد بسواها[2] .

قال تعالى ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾[3] .

هذه الآية كناية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة ، أي لاتعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من جمال التعبير ، وروعة التصوير ، ولطافة الإيجاز ، إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ، ثم إن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكري المجرد في صورة محسوسة ملموسة ولم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص بل تعداه إلى التصيير والتحويل ، فحوله

---

(1) البقرة : ٢٢٣ .
(2) التصوير الفني في القرآن ص٧٨ .
(3) البقرة : ٢٤ .

إلى نار ملتهبة متأججة متوهجة ، أرأيت أعجب من هذا التصوير ، ولا أروع وألذ من هـذا التعبير ؟ إنه الإعجاز يلبس ثوب الكناية فتنحني له هامات البلغاء ، ويثير في النفس أسمى آيات الإعجاب .

قال تعالى ﴿ **ولكن لا تواعدوهن سرا** ﴾[1] في هذه الآية كنى القرآن الكريم عن الجماع بالسر، تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من اللطائف والأنوار والأسرار ، إن في الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الأدب والتهذيب ما يعجز عن وصفه أساطين البيان ، وفيها من جمال التعبير ما يسترق الأسماع ويهز العواطف ويحرك الأحاسيس والمشاعر ، لقد ألبست الجماع الذي يتم في السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان ، أبعد هذا يقال إن الكناية في القرآن يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان ؟ أبداً والله إن بني الإنسان من العجز بحيث لايمكنهم فهم ما تنطوي عليه الكناية في القرآن من الأسرار .

قال تعالى ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم** ﴾[2] .

كنى القرآن الكريم في هذه الآية بنفي قبول التوبة عن الموت على الكفر ، تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من الجمال والروعة ، ألا تحس أن التعبير الذي كنى به القرآن أجمل من أي تعبير آخر؟ ألا تحس أن في هذا التعبير إيجازاً لطيفاً ؟ إن هذا التعبير بجماله وإيجازه وبديع نظمه فوق مقدور البشر.

قال تعالى ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾[3] كنى القرآن الكريم "بالعصف المأكول" عن مصيرهم إلى العذرة فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك ، تأمل هذه الكناية إن فيها من ألوان الأدب والجمال مالا يستقل به بيان ، وفيها من الإيجاز اللطيف ما يعجز عن وصفه مهرة صناع الكلام ، أما الأدب والجمال ففي التعبير عن العذرة بالعصف المأكول وهذا التعبير مما انفرد به القرآن فلا يوجد في غيره ، وأما الإيجاز اللطيف ففي اختصار مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير ، وفيها زيادة على ذلك التلازم الوثيق بين اللفظ والمعنى الكنائي الذي لا يتخلف أبدا فإن العصف المأكول لابد من صيرورته إلى العذرة .

---

(١) البقرة : ٢٣٥ .
(٢) آل عمران : ٩٠ .
(٣) الفيل : ٥ .

فالمعنى لا يؤدي إلا بهذا اللفظ ، واللفظ لا يصلح إلاّ لهذا المعنى حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما فلا يدري أيهما التابع ؟ وأيهما المتبوع ؟ ومن هنا يأتي الإعجاز .

قال تعالى ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾[1] كنى القرآن الكريم في هذه الآية بغل اليد إلى العنق عن البخل ، وببسطها كل البسط عن الإسراف ، تأمل الكنايتين تجد فيهما من روائع البيان ما لا يحيط به فكر إنسان فيهما جمال في التعبير ، وروعة في التصوير ، وإيجاز وتأثير ، وتنفير ، حدثني بربك ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة بغيضة منفرة ؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية ، والتعبير يبسطها كل البسط يصور هذا المبذر لا يبقي من ماله على شيء كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء ، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً[2] ثم تأمل التلازم الوثيق الذي لا يتخلف أبداً بين التعبير والمعنى الكنائي ، إن هذا التلازم يدلك على أن المعنى الكنائي لا يمكن تأديته وتصويره إلا بهذا التعبير ، وأن هذا التعبير لا يصلح إلا لهذا المعنى ، هل في مقدور البشر أن يحاكوا هذا الأسلوب ؟

(١) الإسراء : ٢٩ .
(٢) من بلاغة القرآن ص٢٢٦ .

الفصل الخامس

الإعجاز

في نغم القرآن

إنك إذا قرأت القرآن قراءة سليمة ، وتلوته تلاوة صحيحة ، أدركت أنه يمتاز بأسلوب إيقاعي ، ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر الألباب ، ويسترق الأسماع ، ويسيل الدموع من العيون ، ويستولي على الأحاسيس والمشاعر ، وأن هذا النغم يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة ، ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال ولكنه – على كل حال – ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني ، وأنه تنوع تنوع موسيقي الوجود في أنغامه وألحانه ، ولعلنا لا نخطئ إن رددنا سحر هذا النغم إلى نسق القرآن الذي يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب : "على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعاً ، فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقي الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، والتقفية التي تغني عن القوافي ، وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرناها في النثر والنظم جميعاً"[1] .

اقرأ معي الآيات الأولى من سورة النجم :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والنجم إذا هوى ۝ ما ضل صاحبكم وما غوى ۝ وما ينطق عن الهوى ۝ إن هو إلا وحي يوحى ۝ علمه شديد القوى ۝ ذو مرة فاستوى ۝ وهو بالأفق الأعلى ۝ ثم دنا فتدلى ۝ فكان قاب قوسين أو أدنى ۝ فأوحى إلى عبده ما أوحى ۝ ما كذب الفؤاد ما رأى ۝ أفتمارونه على ما يرى ۝ ولقد رآه نزلة أخرى ۝ عند سدرة المنتهى ۝ عندها جنة المأوى ۝ إذ يغشى السدرة مايغشى ۝ ما زاغ البصر وما طغى ۝ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ۝ أفرأيتم اللات والعزى ۝ ومناة الثالثة الأخرى ۝ ألكم الذكر وله الأنثى ۝ تلك إذن قسمة ضيزى﴾[2] .

تأمل الآيات تجد فواصل متساوية في الوزن تقريباً – على نظام غير نظام الشعر العربي– متحدة

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص٨٦ .
(٢) النجم : ١–٢٢ .

في حرف التقفية تماماً ، ذات إيقاع موسيقي متحد تبعاً لهذا وذاك ، وتبعاً لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية ، لأنه ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات ، وتناسق الكلمات في الجمل ، ومرده إلى الحس الداخلي ، والإدراك الموسيقي ، الذي يفرق بين إيقاع موسيقى وإيقاع ، ولو اتحدت الفواصل والأوزان .

والإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطول متحد تبعاً لتوحد الأسلوب الموسيقي ، مسترسل الروي كجو الحديث الذي يشبه التسلسل القَصَصّي ، وهذا كله ملحوظ ، وفي بعض الفواصل يبدو ذلك جلياً مثل : "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟" فلو أنك قلت : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة لاختلت القافية ، ولتأثر الإيقاع ، ولو قلت : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الأخرى ، لاختل الوزن ، وكذلك في قوله تعالى " ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك – إذن – قسمة ضيزى " فلو قلت : ألكم الذكر وله الأنثى تلك قسمّة ضيزى لاختل الايقاع المستقيم بكلمة إذن .

ولا يعني هذا أن كلمة "الأخرى" أو كلمة "الثالثة" أو كلمة "إذن" زائدة لمجرد القافية أو الوزن ، فهي ضرورية في السياق لنكت معنوية خاصة ، وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتي اللفظة لتؤدي معنى في السياق ، وتؤدي تناسباً في الإيقاع ، دون أن يطغى هنا على ذلك ، أو يخضع النظم للضرورات[1] .

ونلاحظ في النص القرآني أن اتزان الإيقاع في الآيات والفواصل يبدو واضحاً في كل موضع ، ودليل ذلك أن يعدل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة أو أن يبني النسق على نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه ، أو عدلت في النظم أي تعديل .

وأن هذا النغم القرآني ليبدو في قمة السحر والتأثير في مقام الدعاء ، إذ الدعاء –بطبيعته– ضرب من النشيد الصاعد إلى الله ، فلا يحلو وقعه في نفس الضارع المبتهل إلا إذا كانت ألفاظه جميلة منتقاة وجمله متناسقة متعانقة وفواصله متساوية ذات إيقاع موسيقي متزن ، والقرآن الكريم لم ينطق

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص٨٨ .

عن لسان النبيين والصديقين والصالحين إلا بأحلى الدعاء نغماً ، وأروعه سحر بيان ، إن النغم الصاعد من القرآن خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة ، وينشئ في كل لحن مرتعاً للخيال فسيحاً : فتصور مثلاً – ونحن نرتل دعاء زكريا عليه السلام – شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة ، وشعاع من نور ، وتمثل هذا الشيخ الجليل – على وقاره – متأجج العاطفة ، متهدج الصوت ، طويل النفس ، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق شديدة التأثير ، بل أن زكريا في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأساه خوفاً من انقطاع عقبه ، وهو قائم يصلي في المحراب لا يني ينادي اسم "ربه" نداءً خفياً ، ويكرر اسم "ربه" بكرة وعشيا ، ويقول في لوعة الإنسان المحروم وفي إيمان الصديق الصفي **﴿رب إنيّ وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك –رب– شقيا ، وإنيّ خفت الموالي من ورائي ، وكانت امرأتي عاقراً ، فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾**(1) وإن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بيائها المشددة وتنوينها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق : فهذه الألف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها " شقياً – ولياً – رضياً " مع عبد الله زكريا ينادي ربه نداءً خفياً (2) ولقد استشعرنا هذا الجو الغنائي ونحن نتصور نبياً يبتهل وحده في خلوة مع الله ، وكلنا نصغي إلى ألحانه الخفية تتصاعد في السماء ، فكيف بنا لو تصورنا جماعة من الصديقين الصالحين وهم يشتركون : ذكراناً وأناثاً ، شباناً وشيباً ، بأصوات رخية متناسقة تصعد معاً وتهبط معاً وهي تجأر إلى الله ، وتنشد هذا النشيد الفخم الجليل **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾**(3) .

---

(1) مريم : ٤-٦ .
(2) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالحي ص٣٣٨ .
(3) آل عمران : ١٩١-١٩٤ .

إن في تكرار عبارة "ربنا" لما يلين القلب ، ويبعث فيه نـداوة الإيمـان ، وإن في الوقـوف بالسـكون على الراء المذلقة المسبقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم والترنيم ، ويعوض في الأسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان .

ولئن كان في موقفي الدعائين هذين نداوة ولين ، ففـي بعض مواقـف الدعـاء القرآنيـة الأخرى صخب رهيب : ها هو ذا نوح عليه السلام يدأب ليلاً ونهاراً علـى دعوة قومـه إلى الحـق ، ويصر على نصحهم سراً وعلانيةً ، وهم يلجون في كفرهـم وعنـادهم ، ويفـرون مـن الهـدى فـراراً ، ولا يزدادون إلا ضلالاً واستكباراً ، فما على نوح – وقد أيس منهم – إلا أن يتملكه الغيـظ ويمتلئ فـوه بكلمـات الدعـاء الثـائرة الغضبى تنطلـق في الوجـوه مدويـة مجلجلة ، بموسيقاها الرهيبـة ، وإيقاعهـا العنيـف ، وما أظنـك تتخيـل الجبـال إلا دكـا ، والسـماء إلا متجهمـة عابسـة ، والأرض إلا مهـتزة مزلزلة ، والبحار إلا هائجة ثائرة ، حين دعا نوح علـى قومـه بـالهلاك والتبـار فقـال ﴿ **رب لا تـذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفـارا ، رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا** ﴾[1] .

أما الحناجر الكظيمة المكبوتة التي يتركها القرآن في بعض مشاهده تطلق أصواتها الحبيسة – بكل كربهـا وضيقهـا وبحتهـا وحشـرجتها – فهـي حنـاجر الكـافرين النـادمين يـوم الحسـاب العسـير ، فيتحسرون ويحاولون التنفيس عن كربهم ببعض الأصوات المتقطعة المتهدجة ، كأنهم بهـا يتخففـون من أثقال تنقض ظهورهم ، ويفرغون عن طريقها ما يعانون مـن عـذاب أليـم : وإذا هـم يـوم الديـن يدعون ربهم دعاء التائبين النادمين ويقولون ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنـا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾[2] .

وإن هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته ، فتكـاد تستقل – بجرسها ونغمها – بتصوير لوحـة كاملة فيها اللون زاهياً أو شاحباً ، وفيهـا الظـل شـفيفا أو كثيفا ، أرأيت لونا أزهى من نضرة الوجوه السعيدة النـاظرة إلى اللـه ، ولونـا أشـد تجهمـا مـن سـواد

---

(١) الآيات الأخيرة من سورة نوح .
(٢) الأحزاب : ٦٧–٦٨ .

الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾[1] لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة "ناضرة" بتصوير أزهى لون وأبهاه ، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة "باسرة" برسم أمقت لون وأنكاه .

وحين تسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾[2] بينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثا مكروبا صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة "تحيد" بدلاً من "تنحرف" في قوله تعالى ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾[3] .

وتقرأ قوله تعالى ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾[4] .

فلا ترى في المعجم غير كلمة " زحزح " تصور مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات ، وما يصاحبه من ذكر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه ، وليأخذنك من الغيظ مثل ما يأخذ جهنم حين تسمع لفظ " تميز " من قوله تعالى ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾[5] .

وليستولين عليك القلق وأنت تكرر هاء السكت في أكثر فواصل سورة الحاقة ، فتنسى وأنت تتلو قوله تعالى ﴿ ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ﴾[6] أن الذي هلك سلطانه من أوتي كتابه بشماله ، لا أنت ولا سلطانك ، فتظل من الآيات في قلق شديد .

وما أحسب شفتيك إلا منقبضتين استقباحاً واستهجاناً لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا

---

(١) القيامة : ٢٢-٢٥ .
(٢) التكوير : ١٥-١٨ .
(٣) ق : ١٩ .
(٤) آل عمران : ١٨٥ .
(٥) الملك : ٨ .
(٦) الحاقة : ٢٨-٢٩.

يكاد يسيغه في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾[1] فتستشعر في لفظ "التجرع" ثقلاً وبطءاً يدعوان إلى التقزز والكراهية .

ولا أحسبك إلا مستشعراً عنف لفظ الكبكبة ، في قوله تعالى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾[2] حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم أو على مناخرهم ويلقون إلقاء المهملين ، فلا يقيم أحد لهم وزنا .

وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني موزونة بميزان شديد الحساسية تميله أخف الحركات والاهتزازات ، ولو لم يكن شعراً أو لو لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة التي تحد من الحرية الكاملة في التعبير الدقيق عن القصد المطلوب .

فليست الفاصلة فيه كقافية الشعر تقاس بالتفعيلات والأوزان ، وتضبط بالحركات والسكنات ولا النظم فيه يعتمد على الحشو والتطويل ، أو الزيادة والتكرار ، أو الحذف والنقصان ، ولا الألفاظ تحشد حشداً ، وتلصق الصاقاً ، ويلتمس فيها الإبهام والإغراب ، بل الفاصلة طليقة من كل قيد ، والنظم بنجوة من كل صنعة ، والألفاظ بمعزل عن كل تعقيد : إن هو إلا أسلوب يؤدي غرضه كاملاً غير منقوص ، يلين أو يشتد ، ويهدأ أو يهيج ، ينساب انسياباً كالماء إذ يسقى الغراس ، أو يعصف عصفاً كأنه ريح صرصر عاتية تبهر الأنفاس .

---

(١) إبراهيم : ١٦-١٧ .

(٢) الشعراء : ٩٤ .

لقد حاولت – قدر استطاعتي – أن ألم أطراف هذا الموضوع المتشعب ألا وهو الوقوف على سر إعجاز القرآن العظيم ، وقد توصلت في النهاية إلى أن إعجازه إنما يكمن في نسقه الذي يجمع بين مزايا الشعر والنثر ، بموسيقاه الداخلية ، وفواصله المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، وتقفيته التي تغني عن القوافي ، وتصويره العجيب الذي يبث الحركة والحياة في المشاهد ، ويبرز المعاني المجردة في صور محسوسة مشاهدة ملموسة ، ويخلع الحياة على الجمادات فيخيل للسامع أنها كائنات حية لها أحاسيس ومشاعر ، وخلجات وعواطف ، ذلك هو القرآن ، إن نطق لم ينطق إلا بالحق ، وإن علم لم يعلم إلا الهدى والإرشاد ، وإن صور لم يصور إلا أجمل لوحات الحياة ، وإن رتل ترتيلاً لم يسمع بعده لحن في الوجود .

ذلك كتاب الله المجيد ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[1] .

والآن وقد انتهيت من هذه السياحة العجلى في رحاب القرآن الكريم ، أحب أن أقرر أنه لا يستطيع أن يدرك الإعجاز في نظم القرآن ، إلا من وفق لاكتساب عدة أمور هي :

١- ذهن صاف ، وقلب سليم من الأمراض ، نقي من الآفات مملوء بحب الله وحب رسوله ﷺ .

٢- إحاطة تامة بعلم التجويد تمكنه من تلاوة كتاب الله تلاوة صحيحة سليمة .

٣- حفظ كتاب الله عز وجل ، والملازمة على تلاوته في تدبر وتأمل وخشوع .

---

(١) فصلت : ٤٢ .

٤- ذوق رقيق ، وطبع سليم ، وطول معاشرة لأساليب اللغة العربية شعراً ونثراً .

٥- بصيرة نافذة حكيمة ، وحس مرهف يدرك ما احتجب من الأسرار خلف الأستار وفي ختام هذه الخاتمة أضع هذا الجهد المتواضع بين يدي القارئ الكريم مرحباً بكل نقد يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة .

والله الكريم أسأل أن يرزقنا الإخلاص وأن يهيئ لنا أسباب المعرفة ، وأن يفتح علينا فتوح العارفين ، وأن يفيض علينا من علمه ، وأن يمدنا بمدد من عنده ، وأن يشفي قلوبنا من الأمراض ، وأن ينقيها من جميع الأقذار وأن يكفينا شر خلقه ، إنه سميع مجيب ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الأستاذ الدكتور
محمود السيد شيخون
أستاذ البلاغة والنقد ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة
جامعة الأزهر



مصادر البحث

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن .

٣- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، لعز الدين بن عبد السلام . ط الاستانة سنة ١٣١٣هـ .

٤- إعجاز القرآن . للباقلاني . ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢م .

٥- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . لمصطفى صادق الرافعي . ط مصر سنة ١٩٢٦م.

٦- الانتصار . لابن الخياط المعتزلي . نشرة " نيبرج " .

٧- البداية والنهاية . لابن كثير . ط مطبعة السعادة سنة ١٣٥١هـ .

٨- بديع القرآن . لابن أبي الأصبع المصري . تحقيق الدكتور حفني شرف . ط مصر سنة ١٩٥٧م .

٩- البرهان في علوم القرآن . للزركشي . ط الحلبي بمصر سنة ١٩٥٨م .

١٠- بيان إعجاز القرآن . للخطابي . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ط المعارف بمصر .

١١- البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .

١٢- تاريخ آداب العرب . لمصطفى صادق الرافعي . ج٢ . ط بيروت سنة ١٩٧٤م.

١٣- تأويل مشكل القرآن . لابن قتيبة . تحقيق السيد أحمد صقر . ط مصر سنة ١٩٥٤م .

١٤- التبيان في علوم القرآن . لمحمد علي الصابوني . ط بيروت سنة ١٩٧٠م .

١٥- تحرير التحبير . لابن أبي الأصبع المصري . تحقيق الدكتور حفني شرف . نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر سنة ١٩٦٣ م .

١٦- التصوير الفني في القرآن . للأستاذ سيد قطب . ط القاهرة سنة ١٩٦٦م .

١٧- التعبير الفني في القرآن . للدكتور بكري شيخ أمين . ط بيروت سنة ١٩٧٣م .

١٨- تفسير الطبري . ط بولاق .

١٩- تلخيص البيان في مجازات القرآن . للشريف الرضي . تحقيق محمد عبد الغني حسن . ط الحلبي بمصر سنة ١٩٥٥م .

٢٠- حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ . نشر السندوبي .

٢١- الحيوان . للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .

٢٢- دلائل الإعجاز . لعبد القاهرة الجرجاني . ط مصر سنة ١٩٥٠م .

٢٣- ديوان أمية بن أبي الصلت .

٢٤- رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد . ط مصر سنة ١٣٢٣هـ .

٢٥- الرسالة الشافية . لعبد القاهر الجرجاني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ط دار المعارف بمصر . تحقيق د.محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام .

٢٦- رسالة في إعجاز القرآن . لابن كمال باشا . مخطوطة في مكتبة الأزهر تحت رقم ٨٨٥مجاميع .

٢٧- زهر الآداب . للحصري .

٢٨- سيرة النبي ﷺ . لابن هشام . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

٢٩- كشف الظنون . لحاجي خليفة . ط مصر سنة ١٩٤٣م .

٣٠- الكامل . لابن الأثير . ط ليدن .

٣١- الكامل . للمبرد . ط مصر سنة ١٣٢٣هـ .

٣٢- لسان العرب . لابن منظور . ط بولاق سنة ١٣٠٠هـ .

٣٣- مباحث في علوم القرآن . للدكتور صبحي الصالح . ط بيروت سنة ١٩٦٥م .

٣٤- مجاز القرآن . لأبي عبيدة معمر بن المثنى . تحقيق فؤاد سزكين . ط الخانجي بمصر سنة ١٩٥٤م.

٣٥- مختار الصحاح . للرازي . ط مصر سنة ١٩٢٢م .

٣٦- مشاهد القيامة في القرآن . للأستاذ سيد قطب . ط القاهرة .

٣٧- من روائع القرآن . للبوطي . ط دمشق سنة ١٩٧٠ .

٣٨- مقدمة نقد النثر . ط بولاق سنة ١٩٤١م .

٣٩- مناهل العرفان . للزرقاني . ط مصر سنة ١٣٧٢هـ .

٤٠- النشر في القراءات العشر . لابن الجزري . ط دمشق .

٤١- النكت في إعجاز القرآن . للرماني . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ط المعارف بمصر .

٤٢- نهاية الأرب . للنويري . ط دار الكتب المصرية .

فهرس موضوعات البحث

رقم الإيداع
بدار الكتب والوثائق القومية
٩٥/١١٤٢٨
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-5502-23-3